

﴿ ٥١٣ ﴾

« أدب الحوار »

بين

النزعة الدينية والثورة السياسية



الأستاذ الدكتور

عبد الله حسين على سليمان

أستاذ الأدب والنقد



﴿ ٥١٥ ﴾

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، عليه نتوكل، وبه نستعين. والصلاة والسلام على رسول الله خير الخلق أجمعين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد:

فموضوع هذا البحث هو «أدب الخوارج بين النزعة الدينية والثورة السياسية» وحقبة فإن الكتابة عن الخوارج وأدبهم تبدو صعبة غير ميسورة يشوبها كثير من الحرج، ويكتنفها عديد من العقبات، وتتحكم فيها ظروف عسيرة لعلها كانت مبرراً قوياً لدى كثير من الباحثين لعدم الخوض في تاريخ الخوارج والتعرض لأدبهم إلا بقدر كبير من الحذر والحرج، وبكثير من التجنى والانسياق مع الهوى.

وأدب هذه الطائفة قد ضاع أكثره أو أضيع ولم يحفظ منه إلا القليل، ولم يجد من العناية والتقدير ما يستحقه، وما ظفرت به آداب الفرق الأخرى.

ولا ريب فإن الأمر من وجهة النظر العامة الشائعة يتعلق بفئة باغية خرجت على الإمام على رضى الله عنه وقتلته، ثم أعلنت تحديها المتواصل للدولة الأموية فنغصت عليها حياتها، وزلزلت أركانها، وقوضت دعائمها، وكانت عاملاً حاسماً فى القضاء عليها. وفوق ذلك فإنهم فئة تكفر كل من عداها من الفرق وللغات، وترى أن ديار المسلمين إنما هى ديار حرب، ومقاومة أهل الباطل فيها

﴿ ٥١٦ ﴾

فرض، والعودة عن الجهاد كفر لأن كل ما عليه الآخرون باطل، والثورة عليهم واجبة يقضى بها الدين وتحض عليها شريعة الإسلام.

ولقد تهيأ لى - بعون الله وتوفيقه - أن أتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بأمهات المراجع والكتب فوجدت أمراً عجباً....
بعض هذه المراجع والكتب يسلك أصحابها طريق التجنى والتعصب فهم يجورون فى الأحكام ويتخبطون فيها وكأنهم أعدوا لأنفسهم قياساً مطلقاً ومعياراً عاماً يتناولون به كل ما يقع تحت أيديهم من أخبار الخوارج وأدب الخوارج... وهؤلاء ينبغى أن تؤخذ أقوالهم بحذر، ولا ينبغى الاطمئنان إلى أحكامهم.

وفريق آخر من أصحاب هذه المراجع والكتب يعمدون إلى طريقة الحشد المريع فتراهم يجمعون الأخبار والنوادر والآثار والخطب والأشعار فى سرد واستطراد وتداخل وتراكم قد اختلط أمره، وفاض سيله، فهم لا يعنون بترتيب ولا تبويب ولا تنسيق، فلا يسع الباحث إلا أن يتوقف ويتوقف لينقب ويفحص ويستطلع ويستخلص ثم يعد للأمر عدته فيرتب ويبوب وينسق ويقرر آخر الأمر حكمه، ويبنى على هذا الأساس رأيه.

وفريق ثالث تراه يسلك نهجاً لا تتضح فيه فكرة ولا تستقيم له وجهة، ولا تثبت له رأياً، ولا تستقر معه على قرار، ولا تخرج من ورائه بطائل. وهذا - لعمري - فريق لا يقدم نفعاً ولا يحقق رجاء ولا يصل بك إلى هدف.
أما عن المؤلفين المعاصرين والمحدثين الذين قدر لهم أن يكتبوا فى أدب

الحوارج خاصة أو آداب الطوائف والفرق عامة فقد رأيت كثيراً منهم يتفلت الأدب من بين يديه ويتلاشى، لينتقى في النهاية السرد التاريخي الذي لا يتغير ولا يختلف بالإضافة، إلى ما يحيط به من ارتياب وحذر وما يحكمه من تحيز.

ومن حاول منهم أن يكون على شئ من الدقة نراه وقد سلك متاهات وسرايب ملتوية ظل يتوغل فيها إلى أن يصطدم فجأة بجدار لا يستطيع منه النفاذ فيعود مرة أخرى من حيث بدأ ليطلق في سخط ومرارة أحكاماً جامدة متناقضة بعيدة كل البعد عن الموضوعية وعن النماذج والآثار التي ينبغي أن تكون لها الكلمة العليا في الحكم النهائي، والقول الفصل في القضية المطروحة للبحث.

وليس أشد خطراً على قضايا الأدب والنقد من هذه الأحكام المطلقة والكلمات المصبوبة في قوالب جامدة يتوارثها الباحثون جيلاً بعد جيل وكأنها حكم القدر. وقد كان من توفيق الله أن هداني إلى نهج قويم التزمت به في بحثي حيث بدأت متجرداً من كل معاني الريبة والحرج، وقدرت أن الباحث في الأدب ينبغي أن يكون الأدب وحده هو هدفه ووجهته وقصده وما عليه بعد ذلك من حرج فإن أمور العباد بيده تبارك وتعالى وهو الخبير البصير. ولقد حاولت جهدي أن أكون بمنأى عن التأثير بالأحكام المصبوبة في القوالب الجامدة وبالأقوال الشائعة التي لا تزال تتردد ويتلقفها كثير من الناس على أنها قضايا مسلمة.

وقد رأيت أن أستعين بالأخبار التاريخية والنوادر الماثورة بالقدر الذي

يسمح لى أن أستببط منها ما استعين به على كشف الحقائق وتفهم الأسرار ودقة الأحكام بعيداً عن ضجيج الصراع وصخب الاحتدام.

وما توخيته وقصدت إليه منذ البداية إنما هو الموضوعية بمنهجها القويم ونتائجها السليمة. ولقد اقتضت هذه الموضوعية أن أركز على أدب الخوارج وما بقى لنا منه شعراً ونثراً: قصائد وخطباً وقصصاً ووعظاً ونوادير ومحاورات ورسائل وأقوالاً ماثورة... ليكون من خلال البحث والتحليل هادياً ومرشداً إلى استنباط أحكام صحيحة وتقديم صورة واضحة سليمة لأدب الخوارج وما فيه من نزعة دينية وثورة سياسية.

ولقد اقتضى منهج البحث أن أبدأ بمقدمة تمهيدية عن الأدب والحركات السياسية فى عصر صدر الإسلام وما كان لها من جذور مكينة وأصول راسخة فى المجتمع الجاهلى وعلاقات القبائل بعضها ببعض وعلاقاتها بدولتى الفرس والروم والأمارات التابعة لهما. وبذلك تتحقق القاعدة المحكمة التى يعتمد عليها البحث فى أدق نقاطه وأكثرها حيوية وأشدّها، اتصالاً بموضوعه. وبهذه الخلفية المحكمة يتهى لأدب الخوارج مكانه وموضعه بين أدب الحركات المختلفة والفرق المتعددة.

وهذا أمر ضرورى لتدعيم موضوع البحث ولما سوف نحتاج إليه من عقد الموازنة الفنية الموضوعية بين أدب الخوارج وبين غيره من الآداب. بعد ذلك تناولت فى إسهاب وتفصيل وتحليل نشأة الخوارج وما اكتتف هذه

النشأة من ظروف وما أحاط بها وسبقها من أحداث.

وكان الدافع لهذا الإسهاب والتفصيل ما تردد من أقوال وما صدر من أحكام أطلقها بعض الباحثين بلا سند ولا دليل:

فبعضهم يدعى أن حركة الخوارج تتصل بحركة الردة على عهد الخليفة الأول أبي بكر رضى الله عنه، وأن الخوارج ينتمون إلى المرتدين الذين خرجوا على أبي بكر. والبعض الآخر يقرر أن الخوارج هم الثوار الذين تمردوا على عثمان بن عفان الخليفة الثالث وقتلوه... ولعلمهم نسوا أو تناسوا أن الخوارج كفرقة سياسية لم تظهر إلا فى أعقاب «صفين» وبعد قبول على للتحكيم ولم يتدعم موقفهم كحزب له شهادؤه وضحاياها إلا فى أعقاب «النهروان». وقد أوضحت هذا الأمر وبينت وجه الصواب فيه.

كما تناولت بإيجاز أشهر فرق الخوارج وطوائفهم وأقيمت الضوء على مبادئهم العامة والخاصة بقدر ما يكون لذلك من أثر فى تجلية ملامح أدبهم وتوضيح خصائصه وسماته.

ولم يكن الخوض فى الوقائع التاريخية إلا بقدر ما كان لها من قيمة فى كشف الحقائق وإبرازها وما كان لها من فعالية فى الإنتاج الأدبى وتحديد القيمة الفنية لهذا الإنتاج.

على أنه ينبغى أن أشير إلى أننى لم أقف إزاء الأحداث والوقائع التاريخية وقفة جامدة تتقل ولا تعى، وتأخذ ولا تحلل، بل كان لى جهد الموازنة والترجيح والتحليل.... ولم يكن هذا بالأمر الهين من خلال ذلك

﴿ ٥٢٠ ﴾

المناخ القاسى الذى يحيط بالحوارج ويكتنف تاريخهم، وفى ظلمات هذه الأجواء القاتمة التى تسيطر على مرحلة من أشد المراحل خطورة وحساسية فى تاريخ الدولة الإسلامية ووسط ذلك الضباب الكثيف من الأحكام المطلقة ووجهات النظر المتضاربة والآراء المتعارضة، بل والأكاذيب المختلفة فى بعض الأحيان.

وفى مجال البحث فى أدب الخوارج تعرضت بتفصيل وشمول وتوضيح لأبرز خصائصه وأدق ملامحه فى ضوء النصوص والآثار التى بين أيدينا: من شعر وخطابة وقصص ووعظ ونوادر وحكم ورسائل ومحاورات ومجادلات وأقوال ماثورة، وآراء مروية....

وكان لابد لى أن أربط بين هذه الفنون جميعها فى مدارها القويم حول الحركة الخارجية وفى إطار النزعة الدينية والثورة السياسية ولم أعمد إلى تقرير أحكام مطلقة أو إصدار أقوال جامدة هى أقرب ما تكون إلى الأساليب الإنشائية وأبعد ما تكون عن الدراسة الموضوعية بل كانت الأحكام والأقوال مستمدة من النصوص والآثار ومؤيدة بها ومدعمة بأدلتها.

ولقد كانت محاولتى فى عرض النصوص والآثار تركز على دعائم قوية من الوحدة الفنية والموضوعية التى تتجلى بوضوح فى أدب الخوارج والتى تزرى بالحكم الشائع عنها زعماً أنها لم توجد إلا فى أدب العصر الحديث.

وإذا كان موضوع البحث أساساً ينصب على أدب الخوارج بين

﴿ ٥٢١ ﴾

النزعة الدينية والثورة السياسية فلقد تناولت في استقصاء وشمول النزعة الدينية وأساس نشأتها لدى الحوار وقيمتها الكبرى في توجيه حياتهم وأثرها القوى في أدبهم وما يسرى فيه من تيارها المتدفق الذى ضمن له البقاء والخلود.

وعلى هذا النهج تناولت بالبحث الثورة السياسية فى حركة الحوار وبيان أثر هذه الثورة ومظاهرها فى أدبهم شعراً ونثراً.

ولم يكن ذلك ممكناً إلا بتتبع واع عميق لأدق الاتجاهات السياسية وارتباطها بالأحداث والظروف المعاصرة لها وملاحظة تفاعلها مع الأدب تأثيراً وتأثراً باعتبار أن الأدب تعبير فنى عن العقيدة والمبدأ والاتجاه.

وهكذا يتكامل طرفا البحث فى أدب الحوار بين النزعة الدينية والثورة السياسية وكان من المناسب بعد ذلك أن أتناول بعض المشاهير الأعلام من أدباء الحوار فى عرض موجز لنشأتهم وأهم الأحداث فى حياتهم والعوامل المؤثرة فى تكوين شخصياتهم والمقومات الفكرية والفنية التى تمتاز بها هذه الشخصيات والطابع المميز لأدبهم الخاص مع ذكر النماذج الشاهدة والآثار الناطقة بما لهم من فضل وقدر وبما يتوفر لأدبهم من القيم الفنية العالية التى تعد بحق إضافة جديرة بالتقدير لأدبنا العربى الأصيل. ولكى تتحقق للبحث قيمته ويكتمل له هدفه عمدت إلى عقد موازنة فنية بين أدب الحوار وبين غيره من آداب الفرق المعاصرة له: كأدب الشيعة وأدب الزبيريين وأدب الحزب الأموى الحاكم وأدب المرجئة وأدب المعتزلة وأدب الموالى.

﴿ ٥٢٢ ﴾

وذلك كمحاولة لإبراز القيمة الفنية لهذا الأدب بين آداب عصره. وكان من الضروري الحتمى الاطلاع على هذه الآداب المعاصرة لأدب الحوار والتعرض لها بالقدر الذى يكشف عن ملامحها وحقائقها ويبين منزلتها ومكانتها ويحدد وضعها فى مواجهة أدب الحوار موضوع البحث.

وفى النهاية كان لابد لى من أن أعقد فصلاً خاصاً عن حركة الحوار وأثرها فى الأدب والنقد واللغة وما كان لها من دور فعال فى تحريك آداب مناهضة وازدهار فنون قولية عديدة من خطابة وشعر سياسى ومحاورات وقصص ووعظ دينى إلى جانب تلك الرسائل الحوارية البليغة بما فيها من إقناع وإمتاع وتعبير مثير.

وما أتاحت من دراسات لغوية وبلاغية كوسيلة إلى تفهم معانى القرآن الكريم والتمرس بأساليبه والوقوف على فنون تعبيره ووسائل تأثيره.

وقد أوجزت خلاصة هذا البحث وأبرز ما توصلت إليه من أحكام وحقائق فى إطار خاتمة موجزة مركزة تتضمن عناصر البحث وأركانه وأهم النقاط التى تناولتها بالفحص والتحليل على أمل الوصول إلى حقائق ثابتة وأحكام صحيحة تتعلق بأدب الحوار وما اكتنفته من غموض وما أحاط به من ضباب كثيف قوامه تخوف وحذر وتحرج وتوجس وأهواء وميول.

وإنى لأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع حقه أو بعض حقه. والله المستعان وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب..

عبد الله حسين على سليمان

مقدمة

الأدب والحركات السياسية في عصر صدر الإسلام:

في مجتمع القبيلة منذ العصر الجاهلي وفي علاقات القبائل بعضها ببعض وعلاقتها بدولتي الفرس والروم كانت هناك سياسة وكانت هناك أوضاع ونظم مرعية ويمكننا أن نعتبر القبيلة العربية في الجاهلية صورة مصغرة للدولة فكل قبيلة وضعها ونظمها وسبل حياتها ووسائل عيشها ولها أيضاً شيخها وهو رئيسها كما أن لها مجلس وجوهها وأعيانها ولها علاقاتها وارتباطاتها بما يحيط بها من قبائل وما يكتنفها من ملك وسلطان وهناك أيضاً ذلك الالتزام والشعور بالانتماء إلى القبيلة وهذه كلها أمور لها مغزاها ولها خطرها وقدرها.

ومن الطبيعي أن يكون الأدب الجاهلي عامة والشعر بصفة خاصة صحيفة للقبيلة يعبر عنها ويبرز مشاعرها ويوضح مبادئها ويشرح أهدافها ويحدد اتجاهاتها ويكشف عن الأحداث فيها ويبين علاقاتها المتعددة، ولذلك كان الشعر الجاهلي مرآة للحياة في عصره وسجلا حافلا بالمفاخر والأمجاد والبطولات والأيام وبهذا القياس تتحدد القيمة الفعلية للأدب الجاهلي والمنزلة الرفيعة لشعراء هذا العصر^(١).

ولقد كان هناك صراع سياسي بين العرب وبين الممالك المجاورة من

(١) العمدة لابن رشيقي فضل الشعر ص ٧ وما بعدها. تاريخ النقد الأدبي لطفه إبراهيم ص ١٤٧.

الفرس والروم. ولقد عبر الشعر عن ذلك أصدق تعبير وأروع كما نرى في قصيدة الأعشى التي يفتخر فيها بانتصار العرب على الفرس في يوم.. ذى قار ويقول فيها:

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم	منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ملممة شهباء يقدمها	للموت لا عاجز فيها ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة	موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم	مثل الأسنان لا ميل ولا كشف
بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم	جنان عین عليها البيض والزغف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا	ليعرفوا أننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم	ولا بقية إلا السيف فانكشفوا
لو أن كل معد كان شاركنا	في يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف ^(١)

وكما نرى في قصيدة لقيط بن يعمر الإيادي التي وجهها إلى قومه

محذرا من غدر كسرى، ويقول فيها:	
أبلغ إيادا وخلل في سرانهم	إني أرى الرأي - إن لم أعص - قد نصعا
يالهف نفسى إن كانت أموركم	شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعا
مالي أراكم نياما في بلهنية	وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
فاشفوا غليلي برأى منكم حصد	يصبح فؤادى له ريان قد نقعا
ثم يقول:	

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيُرا	على نساكنم كسرى وما جمعا
--------------------------------	--------------------------

(١) الحنو: منحى ذى قار - الغطاريف: السيد الشريف - ملممة: كتيبة مجتمعة - شهباء: كثيرة السلاح جنان: جن - البيضاء: الخوذة - الزغف: الدروع المحكمة.

﴿ ٥٢٥ ﴾

هو الفناء الذى يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا
 قوموا قياما على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا^(١)
 ولقد حمل الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى لواء الثورة
 الاجتماعية ضد النظام القبلى والاجتماعى كله فكان الشعر الصعلوكى معبرا
 بحق عن هذه الثورة كما كان مثالا لشعر سياسى هو شعر الثورة والكفر
 بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والضياع وها هو ذا «الشنفرى الأزدي»
 الشاعر الصعلوك فى لاميته المعروفة باسم «لامية العرب» يقول معبرا عن
 هذه الثورة^(٢):

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإبى إلى قوم سواكم لأميل
 ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقت زهلول وعرفاء جبال
 هم الأهل لا مستودع السرذائع لديهم ولا الجانى بماجر يخذل
 وفيها يقول:

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
 وأستف ترب الأرض كيلا يرى له على من الطول امرؤ متطول

ولنصغ جيدا إلى قول عروة بن الورد أشرف صعلوك وأمير

الصعاليك:

إنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

(١) سراتهم: أشرافهم - البلهنية: الرخاء والترف - رأى حصدا: سديد غيرا: غيورين على الشرف.

(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري، ص ١٥، ص ١٦، ص ١٧. السيد: الذئب العملس: القوى على السير السريع - الأرقط: النمر - الزهلول: الأملس - جبال: اسم للضبع.

﴿ ٥٢٦ ﴾

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد^(١)

كذلك نهض الأدب فى العصر الجاهلى بتحديد الصلات السياسية بين دولتى الفرس والروم من جهة وبين القبائل العربية من جهة أخرى، كما عبر عن علاقات هذه القبائل بإمارتى المناذرة والغساسنة. والمتتبع لأشعار الجاهليين فى هذا المجال يلمح روح الشعر السياسى يسرى قويا نامياً فيما تناوله من آراء وأحداث واتجاهات.

وجاء الإسلام وابتدأ بظهوره طور جديد مغاير للحياة الجاهلية فى نزعاتها وأوضاعها ونظمها وغايتها من الحياة. والإسلام دين ودولة والدين عقيدة وسلوك والدولة نظام وتدبير وهذا من متعلقات السياسة ومجالاتها، والسياسة تدبير وإحكام خطة، وآراء ومبادئ واتجاهات، وهذه أمور ضرورية وحتمية فى ظروف تأسيس الدول وقيام الأمم، وتحديد المعالم.

ولقد نهض الأدب السياسى بمهمته فى هذه الفترة فكان مسائراً للدولة فى تكوينها الداخلى وسلطانها الخارجى، وحروبها الأهلية، وأحزابها السياسية^(٢).

ولقد كان الرسول وخلفاؤه من بعده ينهضون بأعباء السلطتين: الدينية والسياسية دون تفريق بينهما. والخلافة الإسلامية فى أوج عزتها كانت مرداً

(١) الشعراء الصعاليك د. يوسف خليف ص ٣٦.

(٢) تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى. أحمد الشايب ص ٦٦.

للسلطتين الدينية والسياسية والخلافة الإسلامية نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي جدت إثر ظهور الإسلام، والخليفة حاكم سياسى يجمع بين السلطتين الروحية والسياسية ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين ويستطيع باعتباره حامى الدين أن يعلن الحرب على الكفار ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس فى الصلاة ويلقى خطبة الجمعة والعديد وليس له بعد ذلك حق التدخل فى علاقة الناس بخالقهم^(١) «فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر. إنا إلبنا إلبهم. ثم إنا علينا حسابهم»^(٢).

لقد كان ظهور الإسلام بشيرا بتكوين دولة إسلامية ناهضة تلتقى كل الجهود على تأسيسها وتدعيمها وهذه الجهود كانت من غير شك ذات طابع سياسى رشيد يؤثر فى مجريات الأمور وغاياتها ولم يكن الأدب بشعره ونثره سوى تعبير عن هذا الطابع السياسى من حيث غايته وهدفه فهو يتصل بمذهبين: جاهلى وإسلامى، وبنظامين: نظام قبلى منهار، ونظام جماعى موحد، وبسياستين: سياسة محدودة ضيقة وأخرى عميقة بعيدة المدى تمتد لتشمل آفاقا أرحب واتجاهات أوسع وغايات أشمل.

عبر الأدب عن الدعوة الجديدة ومناصرتها وتمجيد أبطالها، والإشادة بغزواتها ومواقعها والنيل من أعدائها وتسفيه مذاهبهم وعقائدهم وآرائهم والأمر كذلك على الجانب الآخر.

(١) كتاب النظم الإسلامية لحسن إبراهيم وعلى إبراهيم ص ٢٠.

(٢) سورة الغاشية الآيات ٢١ - ٢٦.

﴿ ٥٢٨ ﴾

فهذا ضرار بن الخطاب الفهري يعبر عن مأساة قومه في «بدر» من قصيدة
مطلعها:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر عليهم غدا والدهر فيه بصائر

وفيها يقول:

فإن تك قتلى غودرت من رجالنا وتردى بنا الجرد العناجيج وسطكم
ووسط بنى النجار سوف نكرها فنترك صرعى تعصب الطير حولهم
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة لها بالقنبا والدارعين زوافر
وليس لهم إلا الأمانى ناصر لهن بهاليل عن القوم ساهر^(١)

فيجيبه كعب بن مالك بقصيدة مطلعها:

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد وليس لله قاهر

وفيها يقول:

وفينا رسول الله والأوس حوله وجمع بنى النجار تحت لوائه
وقد عريت بيض خفاف كأنها بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
فكب أبو جهل صريعاً لوجهه وشيبة، والتمى غادرن فى الوغى
له معقل منهم عزيز وناصر يمشون فى الماذى والنقع ثائر
مقابيس يزهيها لعينيك شاهر وكان يلقى الحين من هو فاجر
وعتبه قد غادرنه وهو عائر وما منهم إلا بذى العرش كافر

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٣.

فأمسوا وقود النار في مستقرها وكل كفور في جهنم صائر^(١)

وهذه هند بنت عتبة ترتجز يوم «أحد» مغتبطة متشفية:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى حتى ترم أعظمى فى قبرى^(٢)

ويرد عليها حسان بن ثابت «رضى الله عنه»:

أشرت لكاع وكان عادتها لؤما إذا أشرت مع الكفر
لعن الإله وزوجها معها هند الهند طويلة البظر
أقبلت زائرة مبادرة بأبيك وابنك يوم ذى بدر
وبعمك المسلوب بزته وأخيك منحفرين فى الجفر^(٣)

ومثل ذلك كان بين اليهود والمسلمين بل كان أيضاً بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة الرسول والاختلاف على الإمامة والخلافة ونظام الحكومة الإسلامية واندفع الأمويون بدورهم يحرضون الهاشميين على المطالبة بالخلافة لتتحية أبى بكر وسواه. وبعد أن استقر الأمر لأبى بكر جابهته مشكلة ضخمة وأعنى بها فتنة الردة، والردة انتكاسة دينية وسياسية يتمثل فيها التحلل من شعائر الدين والخروج على تقاليد الحكم والثورة على

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٤

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٩٧.

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٩٨.

﴿ ٥٣٠ ﴾

النظام المعروف بسلطته الدينية والسياسية. وشاءت إرادة الله أن ينهض الخليفة الأول بالعبء ويصمد في المجابهة تحقيقاً للكيان السياسي والاجتماعي في ظل الدين والعقيدة وتحقيقاً للسلامة من مخاطر المواجهة الخارجية... ولم يكن الأدب بعيداً عن هذا النشاط السياسي يسجله ويعبر عن اتجاهاته وروحه ومغزاه.

فبعد أن تمت البيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تصارعت الأهواء وتناقضت الآراء وتعددت الاتجاهات وبرزت غرائب وأعاجيب: أبو سفيان بن حرب يتظاهر بالأسى والحزن لتحول الخلافة عن الهاشميين واستقرارها في بني تيم ويحرض على بن أبي طالب على الثورة في أبيات أنشدها يقول فيها:

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي^(١)

يقول أبو سفيان ذلك عند تولية أبي بكر ويأتي ابنه معاوية بعد مقتل عثمان ومبايعة على بالخلافة ليؤجج نيران ثورة عاتية ضده وينتزع الأمر من يده!!!.

ولقد روى الطبري^(٢) أن أبا سفيان بن حرب قد سعى ليوغر صدر على بن أبي طالب ضد أبي بكر الذي انتزع الخلافة من بني عبد مناف

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٦ ص ٧.

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠٢.

﴿ ٥٣١ ﴾

وسمى عليا والعباس بالأذلين والمستضعفين حيث تمثل بقول الشاعر:
 إن الهوان حمار الأهل يعرفه والحر ينكره والرسلة الأجد
 ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوتد
 هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

وكان يردد: ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش؟! ويوجه كلامه
 إلى على بن أبى طالب: والله لئن شئت لأملأها عليه خيلا ورجالا. ويجيبه
 على: «يا أبا سفيان طالما عادت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئا، إنا
 وجدنا أبا بكر لها أهلا»^(١).

لقد تعرضت الأمة بحق لفتنة كان من الممكن أن تعصف بها عقب
 وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة لولا أن الله سلم: ولقد توجه أبو
 بكر إلى سقيفة بنى ساعدة حين بلغه أن الأنصار مجتمعون بها وفى نيتهم
 تولية.. «سعد بن عبادة» زعيم الأنصار.

ولقد حدث الرواة أن عمر أراد الكلام فنهض أبو بكر وقال له على
 رسلك، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:
 «أيها الناس نحن المهاجرون وأول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا وأوسطهم
 دارا، وأحسنهم وجوها وأكثر الناس ولادة فى العرب وأمسهم رحما برسول
 الله صلى الله عليه وسلم، أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك
 وتعالى.. والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢ وتاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٤٠.

﴿ ٥٣٢ ﴾

بإحسان» فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفئ وأنصارنا على العدو، أويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله»^(١).

ومن غير شك فنحن إزاء خطبة سياسية خطيرة لها مغزاها ومن ورائها أهدافها كما أن لها دلائلها وشواهدا وحجتها وإقناعها فكانت الاستجابة كاملة وشاء الله أن تنتهى فتنة ما كان يعلم مداها سواه.

وبويع أبو بكر بالخلافة واستقر الأمر له وكما قال عمر رضى الله عنه: «إن بيعة أبى بكر كانت فلتة، ألا وإن الله وقى شرها»^(٢) لقد كانت بوادر هذه الفتنة تظهر بشكل أو بآخر فى كلمة تقال أو خطبة توجه أو أبيات تتشد. وحين أنشد أبو عبرة القرشى أبياتا يهنئ بها أبا بكر ويعرض بالأنصار ويقول:

شكرا لمن هو بالثناء حقيق ذهب اللجاج وبويع الصديق
من بعد مازلت بسعد نعله ورجا رجاء دونه العيوق
إن الخلافة فى قريش ما لكم فيها ورب محمد معروق^(٣)

تصدى له حسان بن ثابت شاعر الأنصار ورد عليه مشيداً بفضل

الأنصار:

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١٣٠.

(٢) عبقرية الصديق للعقاد ص ٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٦ ص ٨.

﴿ ٥٣٣ ﴾

نصرنا وأوينا النبي ولم نخف
بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا
فكان جزاء الفضل منا عليهم
صروف الليالي والبلاء على رجل
كقسمة أيسار الجزور من الفضل
جهالتهم حمقا وما ذاك بالعدل^(١)

ويرد ابن أبي عزة القرشي:

معشر الأنصار خافوا ربكم
إنني أهرب حربا لا قحا
واستجبروا الله من شر الفتن
يشرق المرضع فيها باللبن^(٢)

ويصيح خزيمة بن ثابت الأنصاري متوسلا:

يا القریش أصلحوا ذات بيننا
فلا خير فيكم بعدنا فارقوا بنا
كلانا على الأعداء كف طويلة
إذا كان يوم فيه حب الحواريك
فلا تذكروا ما كان منا ومنكم
ففي ذكر ما قد كان مشى التشارك^(٣)
وبينكم قد طال حبل التماحك
ولا خير فينا بعد فهر بن مالك

ومرة أخرى يجابه أبو بكر فتنة هو جاء بل ثورة عاتية تمثلت في حركة المرتدين وتلك حركة دينية في ظاهرها سياسية في المقام الأول أريد بها أن تنتكس هذه الأمة وتذهب ربحها لكن الله شاء أن يقف أبو بكر موقفا جريئا حازما فالأمر أمر طاعة ونظام أما حديث الصلاة والزكاة وهذه التعللات فما هي إلا مما حكات تخفى سببا جوهريا وعلة كامنة هي الانتقاض على الحكم وإعلان التمرد والعصيان وفي ذلك يقول أبو بكر قولته المشهورة:

(١) نفس المرجع ج ٦ ص ١٠

(٢) المرجع ج ٦ ص ١٠

(٣) المرجع ج ٦ ص ١٢.

«والله لو منعوني عقاب بعير كانوا يؤدونه للرسول صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه» وفي رواية أخرى كان أبو بكر يقول «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا لقاتلتهم على منعها» ويصيح بعمر: «يا ابن الخطاب: رجوت نصرتك وجنتى بخذلانك؟ أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام؟! إنه قد انقطع الوحى وتم الدين، أو ينقص وأنا حى؟!»

وعن المرتدين وآرائهم يعبر الحطيئة فيقول:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا	فبالعباد الله ما لأبى بكر
أيورثنا بكرا إذا مات بعده	وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلأ رددتم وفدنا بزمانه	وهلا خشيتم حسى راعية البكر
وإن التى سألوكم فممنحتهم	لكالتمر أو ألقى إلى من التمر

ولقد حمل الأدب لواء التعبير عن الصراع السياسى والعسكرى فى المجالات الخارجية فى عهد الخليفة الثانى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والخليفة الثالث من بعده عثمان بن عفان كما سجل للدولة نشاطها السياسى الداخلى أيضاً فى هذين العهدين...

ونحن نرى مظهراً جديداً لهذا الصراع أخذ يتجه اتجاهها خطيراً منذ أخريات عهد عمر رضى الله عنه متمثلاً فى الاغتيال السياسى.... فلامور غير خافية أقدم عدو الله أبو لؤلؤة فيروز المجوسى على قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بتدبير فارسى يهودى محكم استهدف القضاء على أقوى نظام حكم أسسه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه سداه ولحمته

عقيدة وجهاد، إيمان وعمل، دين ودولة وهذا شاعر الإسلام حسان بن ثابت يرثي عمر ويقدم صورة صادقة لحكومته وسياسته فيقول:

وفجئنا فـيروز لا در دره بأبيض يتلو المحكمات منيب
رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخی ثقة فى النائبات نجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله سريع إلى الخيرات غير قطوب^(١)

بعد ذلك تهب ثورة عاتية ضد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه لأمر نقمها الناس على عثمان وضروب من التصرف رأوا فيها مخالفات بشعة لما كان عليه عهد الرسول والصاحبين من بعده.. ويخطب عثمان فى الناس مدافعا عن نفسه فيقول^(٢):

«إن لكل شئ آفة، وإن لكل نعمة عاهة، وإن آفة هذه الأمة عيابون طعانون يظهرون لكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون طغام مثل النعام، يتبعون أول ناعق، أحب مواردهم إليهم النازح، لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقتم على، لكنه وقمكم وقمعكم، وزجركم زجر النعام المخزومة، والله إنى لأقرب ناصرا وأعز نفرا وأقمن - إن قلت هلم إلى - أن تجاب دعوتى من عمر، ولقد أخرجتم منى خلقا لم أكن أحسنه، ومنطقا لم أنطق به، هل تفقدون من حقوقكم شيئا، فما لى لا أدخل فى الحق ما أشاء إذا فلم كنت إماما؟!»

(١) الديوان ص ٣٨.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٨٩ - البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٦٩ - صبح الأعشى للقلقشندي ج ١ / ٢١٤.

﴿ ٥٣٦ ﴾

لكن ثائرة الناس لم تهدأ وانتهت حياة الخليفة الثالث بقتله غيلة في داره بأيدى جماعة من المسلمين^(١). وكان ذلك في الثاني عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ٦٥٥ م ويندب الوليد بن عقبة بن أبي معيط عثمان عقب مقتله فيقول:

بنى هاشم إيه فما كان بيننا وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ما تحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرآز به

ويرد عليه الفضل بن العباس:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان ولى العهد بعد محمد على وفى كل المواطن صاحبه^(٢)

وهذا حسان بن ثابت يبكي عثمان ويدعو دعوة قوية إلى ثورة عاتية

تعصف بالقتلة وتأخذ بالثأر:

من سره الموت صرفا لا مزاج له فليات مأسدة فى دار عثمانا
صبرا فدا لكم أمى وما ولدت قد ينفع الصبر فى المكروه أحيانا
لعلكم لن تُروا يوماً بمغبطة خليفة الله فيكم كالذى كانا
إنى لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا ما دمت حيا وما سميت حسانا
يا ليت شعرى وليت الطير تخبرنى ما كان شأن على وابن عفانا
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

(١) تاريخ الإسلام السياسى - حسن إبراهيم ج ١ ص ٢٧٨.

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٢٣٤. شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ٩٠.

﴿ ٥٣٧ ﴾

لتسمعن وشيكا فى ديارهم الله أكبر ياآارات عثماناً^(١)

وحين بلغ معاوية مقتل عثمان أنشد معبرا عن خطته وسياسته:

أتانى أمر فيه للناس غمة وفيه بكاء للعيون طويل
مصاب أمير المؤمنين وهذه تكاد لها صم الجبال تزول
تداعت عليه بالمدينة عصابة فريقان منهم قاتل وخذول
سألقتها حربا عوانا ملحة وإنى بها من عامنا لكفيل^(٢)

واشتد لهيب الفتنة وعظم أوارها وابتلعت بكل قسوة عهد الخليفة الرابع الإمام على رضى الله عنه: فتنة هو جاء، وثورة جامحة زلزلت الكيان، وهزت الوجدان، وأثارت المشاعر، وأقلقت الضمائر تلك محنة بلا شك راح ضحيتها الآلاف من المسلمين فى معارك مريرة كان الرابع فيها هو الشيطان.. وتلك - لعمرى - مأساة!! فقد هب معاوية ثائرا ضد الإمام على مطالباً بالثأر من قتلة عثمان وكان العراق مع على والشام مع معاوية، وقد عبر كعب بن جعيل عن هذا الموقف الدقيق بقوله:

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق له كارهونا
وكل لصاحبه مبعوض يرى كل ما كان من ذلك دينا
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا

ويرد النجاشى بقوله:

دعن معاوى ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢١٩.

(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ١٥٦.

﴿ ٥٣٨ ﴾

أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القوم ملك العراق فقد ما رضينا الذى تكرهونا^(١)

وعلى طرف آخر نجد نارا يوججها وثورة يشعلها الوليد بن عقبة فى
أبيات بعث بها إلى معاوية تحريضا له على قتال على:

ألا أبلغ معاوية بن حرب فإنك من أخى ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدم المعنى تهذر فى دمشق فما تريم
وليس أخو الترات بمن توانى ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيا لحرد لا ألف ولا سنوم
ولا نكل عن الأوتار حتى يبيئ بها ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا فهم صرعى كأنهم الهشيم

وعائشة - غفر الله لها - تتدخل فى الأمر على غير بصر ولا روية
وتثيرها فتنة ضد الإمام على وقد استغل موقفها استغلالا بشعا فى سبيل مآرب
سياسية وأهواء شتى بينما كانت عائشة هى التى قد حرصت من قبل على
عثمان لمحاباته لأقاربه فقد روى الطبرى محاوره أجراها معها عبد بن أبى
سلمة المعروف بعبد بن أم كلاب وهى فى طريقها إلى مكة لتكون مع
الأمويين... قالت عائشة: «قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه» وقال
لها عبد: ولم؟ فوالله إن أول من أمار حرفه لأنت ولقد كنت تقولين: اقتلوا
نعثلا فقد كفر...^(٢) ثم أنشد:

فمنك البداء ومنك الخير ومنك الرياح ومنك المطر

(١) الأخبار الطوال ص ١٦٢.

(٢) تاريخ الشعر السياسى (نقلا عن الطبرى) ص ١١٨.

﴿ ٥٣٩ ﴾

وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
 فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر
 ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
 وقد بايع الناس ذا ثذراً يزيل الشبا ويقيم الصخر
 ويلبس للحرب أثوابها وما من وفي مثل من قد غدر

كما روى الجاحظ في بيانه^(١) أن عثمان بن حنيف بعث عمران ابن حصين مع رجل آخر إلى عائشة فقال الرجل.. يا أم المؤمنين أخبرينا عن مسيرك أهدأ عهد عهده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم رأى رأيته؟ قالت بلى رأى رأيته حين قتل عثمان إنا نقمنا عليه ضربة السوط وموقع السحابة المحماة وإمرة سعيد والوليد فدوتم عليه فاستحللتم منه الحرم الثلاث حرمة البلد وحرمة الخلافة وحرمة الشهر الحرام بعد أن مصناه كما يماص الإناء فاستتقى فركبتم هذه منه ظالمين فغضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيفكم؟ قال الرجل.. وما أنت وسيفنا وسوط عثمان وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تقرى في بيتك فجنت تضرين الناس بعضهم ببعض، قالت وهل أحد يقاتلني أو يقول غير هذا؟ قال: نعم قالت: ومن يفعل ذلك أن نيم بنى عامر (تعنى عمار بن ياسر) ثم قالت: هل أنت مبلغ عنى يا عمران؟ قال: لا لست مبلغاً عنك خيراً ولا شراً فقال رفيقه: لكنى مبلغ عنك فهاتى ما شئت. فقالت: اللهم اقتل مذمماً قصاصاً بعثمان تعنى محمد بن أبى بكر - وارم الأشر بسمهم من سهامك لا يشوى وأدرك عماراً بحفرته فى عثمان.

(١) البيان والبتين ج ٢ ص ٢٩٥.

أما طلحة والزبير فلم يكن لهما أو لأيهما مذهب محدد أو اتجاه معروف فقد بايعا عليا أول الأمر ثم طمعا في الحكم واتخذا من موقف السيدة عائشة سندا لهما وانحازا في بعض الفترات إلى الأمويين على غير هدى ولا بصيرة وانتهى الأمر بقتلها جميعاً.

وبقبول علي التحكيم في وقعة «صفين» ظهرت طائفة الخوارج ورددوا شعار الثورة وخرجوا على الإمام علي وحكموا بالكفر على كل أطراف النزاع الذين بدلوا وغيروا في دين الله وعملوا للدنيا ولأنفسهم وأعرضوا عن جانب الله... هكذا كان رأى الخوارج.. ومن هذا المنطلق اندلعت نيران فتنة هو جاء بلغت ذروتها ووصلت إلى قمة مأساة مريعة بمقتل الإمام على غيلة بيد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم أحد الثوار الذين نقموا على الإمام على قبوله التحكيم وتهاونه في الأمر.

وتمضى الأحداث سراعاً متعاقبة ليخلص الأمر بعد ذلك كله للأمويين بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية. ووسط ظروف صعبة كل الصعوبة مريرة كل المرارة هب فيها الخوارج بثورة عاتية ظلت قوية عاصفة حتى نهاية العصر الأموي ولم يسلم منها العهد العباسي... وكانت ثورة موجهة ضد الجميع: من تسببوا في هذه الأوضاع ومن رضوا بها وسكتوا عليها... الجميع في نظرهم مسئولون بل إنهم كفره ومصيرهم إلى النار. وعلى جانب آخر نرى الشيعة شيعة الإمام علي وأنصاره الذين ينادون باستمرار الحكم في عقبه وذريته من بعده وهم في سبيل ذلك يلهبون المشاعر ويثيرون الأحاسيس ويخوضون حرباً لا هوادة فيها ظاهرة وخفية ساخنة

وباردة يستعينون فيها بكل الوسائل ويستخدمون شتى الأساليب. وهناك الزبيريون أتباع عبد الله بن الزبير بن العوام، وهناك المرجئة الذين توقفوا في الحكم على كل هذه الفرق ورأوا أن الأمر موكول إلى الله ولله عاقبة الأمور.

وهناك المعتزلة الذين حولوا الصراع إلى فكر ومذهب وفلسفة وهناك بعد ذلك كله وفوق ذلك كله الحزب الحاكم حزب الأمويين بكل ما في أيديهم من سلطة وقوة ومقدرة ودهاء وسياسة.. وهكذا تعددت الفرق وكثرت المذاهب وانتشرت الأحزاب وتباينت النزعات وتضاربت الأهواء واختلطت زورا بالدين في وقت حرج كان فيه الدين أبعد ما يكون عن القلوب وكان فيه الإسلام بحاجة ماسة إلى هدوء وسكينة واستقرار ليدعم بسطان الحق والعدل حياة العقيدة والحرية والعزة والسلام.

في خضم هذه الأحداث ووسط هذه الظروف المضطربة والأهواء المتغالبة والفرق المتصارعة قام الأدب بدور بالغ الأهمية بكل فنونه وأغراضه وموضوعاته وبماله من تأثير قوى على النفوس. طبعى حقا أن يتأثر الأدباء بالأحداث وينفعلوا بها وتكون لهم آراؤهم واتجاهاتهم وطبعى أيضاً أن يكون لهؤلاء الأدباء على اختلاف مشاربهم وأهوائهم ونزعاتهم تأثير قوى وفعال في الأحداث وتوجيهها والقدرة على التأثير في الجماهير ومناصرة المذاهب المتعددة والأحزاب المختلفة وقد تكون المناصرة بالحق أو بالباطل، عن اقتناع أو عن مداينة، بغية الحق أو طلبا للنفع الذاتى، هذا لا يهم فالأمر أمر صراع سياسى والسياسة لا أخلاقية فيها ولا ضمير عندها...

نعم هناك طائفة عرفت الحق واعتقدته وناصرته ونادت به وأعلنت في سبيله كلمتها وكان أدبها أدب خلق وأدب حق ومشعل هداية لكنها تبقى بعد ذلك كله طائفة محدودة تكتنفها طوائف، ونفر قليل في خضم زاخر تتناوح فيه الأعاصير وتتصارع تيارات تعصف بكل شيء ولا يسلم منها شيء....

وعلى رأس هذه الفرق المتصارعة وفي مقدمة هذه الأحزاب المتصارعة يبرز دور الحوار كفرقة عاتية وحزب ثوري جامع له مبادئه واتجاهاته ومذاهبه وطوائفه كما أن له أدبه المتميز بخصائصه وملامحه وسماته...



﴿ ٥٤٣ ﴾

الفصل الأول

نشأة الخوارج وأشهر طوائفهم»

(١)

نشأة الخوارج:

عن أبي بكرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه فقال رجل: يا رسول الله: من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاة..»^(١).

ولئن كان الرسول الأمين قد نصح وحذر فإن خليفته وصاحبه الوفي الأمين أبا بكر الصديق ظل يواصل النصح والتحذير فلقد روى عنه من خطبة له قوله:

«ألا إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك... ألا إن الفقراء هم المرحومون، ألا وإنكم اليوم على خلافة النبوة، ومفرق المحجة وإنكم سترون بعدى ملكا عضوضا، ومكاف عنودا، وأمة شعاعا، ودما مفاحا، فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة يقفولها الأثر وتحيا بها الفتن وتموت لها السنن فالزموا

المساجد واستشيروا القرآن، واعتصموا بالطاعة، ولا تفارقوا الجماعة»^(١).

واشتعلت نيران الثورة ضد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بسبب أقربائه وعشيرته الذين أساءوا إلى عهده وحكمه بتصرفاتهم وتحركهم المريب وسلوكهم الطائش ثم كانوا سبباً في قتله غيلة بأيدي الثوار الذين ساءهم الفساد وإطلاق أيدي الولاة في مصالح الدولة وتمت البيعة بالخلافة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ولم يقبل على البيعة إلا من أصحاب بدر وأهل الحل والعقد في الأمة^(٢) وهب بنو أمية وأنصار عثمان يطلبون بثأره ويتهمون علياً بخذلانته والتستر على قتلته. وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي^(٣):

وما في علي لمستحدث	مقال سوى عصمة المحدثينا
وإثاره لأهالي الذنوب	ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سئل عنه زوى وجهه	وعمى الجواب على السائلينا
فليس براض ولا ساخط	ولا في النهاية ولا الأمرينا
ولا هوناه ولا أمر	ولا أمن بعض ذا أن يكونا

وتبرأ علي من دم عثمان وأعلن براءته من قتلته لكن القضية اتجهت وجهة خطيرة أضحت فيها الخلافة مطلب كل طامع واتخذ مقتل عثمان سبباً محرّكاً لعوامل الفتنة والفرقة.. فإن بعض الروايات تحكى أن.. نائلة بنت القرافصة» زوجة عثمان وجهت رسالة إلى معاوية مع النعمان بن بشير ومعه

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٣ - عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٣ - العقد الفريد ج ٤ ص ٥٩.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢١٧.

(٣) المرجع السابق.

قميص عثمان مخضوبا بالدماء تستصرخه ليأخذ بثأر قريبه الخليفة المقتول. ويهتبل معاوية الفرصة ويحرض أهل الشام ويستثير النفوس ليتم الأمر له.. وقد حاول الإمام على تبصيره وإرشاده لكنه ركب المركب الصعب.. وفي رسالة إليه يقول على:

«أما بعد فقد أتاني كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابته، وقاده فاتبعه... زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خفري بعثمان ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى وما أمرت فلزمتي خطيئة الأمر، ولا قتلت فأخاف على نفسي قصاص القاتل» أما معاوية فإنه يقول في رسالة له:

.. أما بعد فإن الله اصطفى محمدا وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه واختار له من المسلمين أعوانا أيده بهم وكانوا في منازلهم عنده على فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة والخليفة الثالث فكلهم حسدت وعلى كلهم بغيت عرفنا ذلك في تنفسك الصعداء وإبطائك على الخلفاء وأنت في كل ذلك تقاد كما يقاد البعير حتى تبايع وأنت كاره ولم تكن لأحد منهم أشد حسدا منك لابن عمك عثمان... (ثم يقول).. والذي نفس معاوية بيده لأطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله...»^(١).

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٤٣.

ولم يجد في الأمر كتاب ولا حوار ولا دليل أو إقناع فعلى يرى أن بيعته انعقدت بمبايعة أهل بدر وأصحاب النبي وفيهم طلحة والزبير^(١) وهذه البيعة تلزم من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة.. وكان من الطبيعي أن يبدأ على في إزالة الأسباب التي أدت إلى الثورة على عثمان فأخذ في عزل ولاته وعماله وتعيين ثقات آخرين. وهنا هب معاوية في مواجهة على متهما إياه بالمشاركة في مقتل عثمان وخرجت عائشة هي الأخرى تحض على الأخذ بثأر الخليفة المقتول وهنا نرى طلحة والزبير ينقضان بيعتهما لينضما إلى المطالبين بالدم وحجتهما أنهما أولى بالمطالبة بدم عثمان لأنهما من الستة الذين اختارهم عمر للشورى ومن السابقين الأولين في الإسلام. أما معاوية فهو يرى أنه أولى الناس رحما بعثمان وأقوى أهل بيته في المطالبة بدمه. وهناك طائفة أخرى من كبار الصحابة لم تشترك في شئ من النزاع القائم وفضلت العزلة ومن أشهر هؤلاء: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة ابن زيد، وأبو سعيد الخدري، وحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد وعبد الله ابن سلام، والنعمان بن بشير^(٢).. فهؤلاء قد امتنعوا عن الخوض في الحروب التي وقعت بين الطائفتين العلوية والأموية وفوضوا الأمر كله لله.

ويمكننا أن نلاحظ بيسر كيف أن الخلافة والإمامة والأطماع في الحكم كانت هي المحرك الرئيسي لهذه الفتنة وليست المطالبة بدم عثمان سوى ستار

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني القسم الأول ص ١٢٤ تخريج محمد بن فتح الله بدران.

تحجب وراءه الطامعون، ولو أن علياً رضى الله عنه تجنب التشدد والتزم بالمرونة والسياسة والدهاء لكشف هؤلاء جميعاً وسلم له الأمر كله.

ولقد أفصح عن الحق وكشف عن خطة الصواب: عبد الله بن عمر في حوار له مع طلحة والزبير حيث حاولا استمالته وإغراءه بالخلافة فقال عبد الله بن عمر «أيها الشيخان أتريدان أن تخرجاني من بيعتي ثم تلقينى بين مخالبي ابن أبي طالب؟ إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم، وإنى قد تركت هذا الأمر عياناً فى عافية أنالها.... اعلموا أن بيت عائشة خير لها من هودجها، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل علياً إلا من كان خيراً منه، وأما الشورى فقد والله كانت فقدم وأخرتما ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فاكفينى أنفسكما»^(١).

وتمكن الإمام على من أن ينتصف لنفسه فى موقعة الجمل من جماعة طلحة والزبير وعائشة فقتل طلحة وقتل الزبير وعقر جمل عائشة وحملته معززة مكرمة إلى مأمنها، ووقف على يناجى طلحة وهو قتيل:

«أعزز على يا أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء وبطون الأودية، إنا لله وإنا إليه راجعون، والله إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم» ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين وإذا لم نكن نحن فمن هم؟. كما بشر عمرو بن جرموز قاتل الزبير بالنار وقال له سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٠٣.

﴿ ٥٤٨ ﴾

يقول «بشروا قاتل الزبير بالنار... فأنشد عمرو بن جرموز:

أتيت عليا برأس الزبير وقد كنت أحسبها زلفة
فبشر بالنار قبل العيان فبئس بشارة ذى التحفة^(١)

ولقد كان يوم الجمل يوما رهيبا قتل فيه من المسلمين عشرون ألفا

وكان الجمل كظهر القنفذ من كثرة السهام يقول الشاعر:

شهدت الحروب وشيبنى فلم تر عيني كيوم الجمل
أثير على مؤمن فتية منه لخرق بطل
فليت الظعينة فى بيتها وليتك عسكر لم ترتحل^(٢)

وقد كان سلوك الإمام على السلوك الأخلاقى فلقد فعل ما هو أهل له

ولم يخره الانتصار. أما عن طلحة والزبير فالحق أنهما كانا مضطربى السلوك
السياسى فقد بايعا عليا ثم نكثا واتخذا من موقف عائشة سندا لهما وصانعا
الأمويين على غير هدى ولا بصيرة ثم قتلا آخر الأمر ويروى أن طلحة أنشد
متمثلا قبيل مقتله:

فإن تكن الحوادث أقصدتتى وأخطأهن سهمى حين أرمى
فقد ضيعت حين تبعت سهمها سفاها ما سفهت وضل حلمى
ندمت ندامة الكسعى لما شريت رضى بنى سهم برغمى
أطعتهم لفرقة آل لأى فألقوا للسباع دمي ولحمى^(٣)

أما عائشة فقد استخدمتها السياسة واستغلتها الأهواء أبشع استغلال

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٩.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٠.

(٣) مروح الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٢٤٦.

وكان دخولها في هذا الشغب السياسي أمرا منكرًا^(١). ولعلها شعرت بذلك فيما بعد فحين شارفت الموت وكانت في السبعين من عمرها وهي مقيمة بالمدينة في خلافة معاوية قيل لها «تدفنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: لا، إني أحدثت بعده حدثا فادفنوني مع إختي بالبقيع. وروى أن النبي كان قد قال لها:

«يا حميراء كأني بك ينبحك كلاب الحوآب تقاتلين عليا وأنت ظالمة له»

وفي ذلك يقول بعض الشيعة:

إنى أدين بحب آل محمد وبنى الوصى شهودهم والغيب
وأنا البرئ من الزبير وطلحة ومن التى نبحت كلاب الحوآب^(٢)

وكان على الإمام على بعد انتصاره فى موقعة الجمل أن يضرب ضربته فى الشام حيث يجمع معاوية أمره ويعد عدته وفى ذلك يقول.. الشئ»
محرضا له على المسير إلى الشام:

قل لهذا الإمام قد خبت الحر ب وتمت بذلك النعماء
وفرغنا من حرب من نكث العهد د وبالشام حية صماء
تفت السم ما لمن نهشته - فارمها قبل أن تعض - شفاء^(٣)

وشعر معاوية بحرج موقفه واحتاج إلى معونة «عمرو بن العاص» لكن هذا شرط عليه أن تكون له مصر وقال : لا أعينك من دينى حتى أنال من دنياك

(١) أثر التشيع فى الأدب العربى. محمد سيد كيلانى ص ١٢.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٢ - والحوآب قرية فى طريق المدينة إلى البصرة - الوصى: على.

(٣) الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ١٥٤.

وأنشد عمرو:

معاوى لا أعطيك دينى ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطنى مصرا فأربح صفقة أخذت بها شيئا يضر وينفع^(١)

وقد أجابه معاوية إلى طلبه دهاء وسياسة وطمعا فى الوصول إلى
الغاية ولو لم يكن الإمام على متشددا فى الحق ولو أنه كان على شئ من
المرونة والسياسة وأقر معاوية على ولايته إلى أن يتم له أمره لتغير مجرى
التاريخ الإسلامى فى هذه الفترة ولسارت الأمور فى غير ما اتجهت إليه ولقد
أشار المغيرة بن شعبة وهو من دهاة العرب على الإمام على بإبقاء معاوية
على الشام حتى تلزمه طاعة على وبعدها يكون له الأمر لكن عليا أبى ذلك
لأن هؤلاء الولاة - ومن بينهم معاوية - كانوا هم السبب فى الثورة على
عثمان وإيقاؤهم استمرار للفساد.

وأرى أن السياسة لها وجهها ولها مرونتها ولها ضربتها المواتية فى

وقتها المناسب وفى ذلك يقول المغيرة كما روى المسعودى^(٢):

نصحت عليا فى ابن هند مقالة فردت فلا يسمع لها الدهر ثانية
وقلت له - أرسل إليه بعهدده على الشام حتى يستقر معاوية
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته وأم ابن هند عند ذلك هاوية
فلم يقبل النصح الذى جئته به وكانت له تلك النصيحة كافية

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٢٤٠.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٦.

وخرج على من الكوفة في تسعين ألفا متوجها إلى صفين^(١) وخرج معاوية بخمسة وثمانين ألفا من جند الشام وكان ذلك في المحرم سنة سبع وثلاثين للهجرة واتفق الطرفان على تأجيل الحرب إلى صفر^(٢).

تلك حرب سياسية - لا شك - الخلافة فيها غاية والإمامة مطمع. وكل فنة متحاربة تنتظر نتيجة الحرب لمن تكون الخلافة والإمامة؟ ولمن يكون الحكم والسلطان؟ لبني هاشم أو لبني أمية؟ وانقسم الناس وتعددت الأهواء واختلفت المذاهب وكان للأدب دوره وأثره في هذا المجال.

وكان جند على أهلا للنصر بتفتهم في الله وإيمانهم بالحق وإخلاصهم لإمامهم. أما أهل الشام فلم يكن الأمر بالنسبة لهم - فيما أرى - طلبا لثأر عثمان لأن قتلته في جيش على كما ذكر بعض المؤرخين^(٣).

والحقيقة التي لا أشك فيها أن معاوية متمكن منهم غاية التمكن وهم جميعاً في يده لا يتفقت منهم أحد فلقد اتبع معاوية معهم سياسة طويلة المدى جعلتهم رهن إشارته فهم إنما خرجوا لأن معاوية أراد لهم أن يخرجوا وهم أحرص الناس على تنفيذ أمره وتلبية مشيئته وخير لهم أن تكون الخلافة لوالدهم الذي عرفوه وخبروه من أن تكون لغيره وخير لهم كذلك أن تكون بلادهم عاصمة الخلافة ولو كان الأمر أمر ثأر لعثمان لكان في مقدور أهل

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٧.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٤.

(٣) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٦٦.

الشام أن يكونوا جيش حراسة يعسكر في مقر الخلافة لحماية عثمان بعد أن اشتدت الثورة ضده وطلب النصر والمعونة من كل الأطراف.

ويزحف على بجيشه ويزداد حماس رجاله ويشتد القتال ويوشك النصر أن يتحقق ويكاد الأمر يتم لعلى فلقد ارتفعت الأصوات ونادت مشيخة أهل الشام: الله الله في الحرمات والنساء والبنات.. ويستجير معاوية بعمر بن العاص: «هلم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكننا.. وهنا يظهر دهاء عمرو فينادى: أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه...» فكثرت في الجيش رفع المصاحف وعلت الضجة وتصايح الناس: كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ وتعالى الأصوات تطالب بتحكيم كتاب الله وسرت الخديعة مسرى النار في الهشيم وكان هدف عمرو واضحا فقد أراد أن يمتص غضبة العراقيين الذين اندفعوا في المعركة بكل عنف وبكل صلابة وقد تمكن بحياته من تخفيف هذا العنف وتحطيم تلك الصلابة وها نحن مرة أخرى أمام حركة بارعة من الحركات والألاعيب السياسية بطلها عمرو بن العاص وضحيتها أمير المؤمنين على بن أبي طالب وصاحب المصلحة فيها معاوية بن أبي سفيان.

وعبثا حاول الإمام على أن يبين للقوم وجه الخديعة في هذا الشعار واضطر مرغما إلى قبول التحكيم مع أنه كان على يقين من أن أهل الشام لو قد أرادوا فعلا أن يتقوا الفتنة والحرب لرفعوا المصاحف ودعوا إلى ما فيها قبل بدء

القتال وما أكثر ما ذكروا بالقرآن فلم يذكروه..^(١) تلك مؤامرة دبّرت لبيل كما يقولون لعبت فيها الأهواء أدوارا حقيرة تعقب النفوس حسرة وتذيقها مرارة، فهذا هو الإمام على يجد نفسه مضطرا إلى إيقاف القتال بناء على رغبة الكثرة كما يجد نفسه مضطرا مرة أخرى إلى اختيار أبي موسى الأشعري نائبا عنه وممثلا له مع عدم اقتناعه به فقد اختاره أهل العراق ورفضوا عبد الله بن عباس لقربته من على كما رفضوا الأشتر النخعي لشدة رغبته في القتال...

والحقيقة كلمة أقولها: فلقد كان هناك من دخل معركة صفين عن إيمان واقتناع ويقين ورغبة في الجهاد وطمعا في الاستشهاد ونصرة للحق وهؤلاء ما كانوا يتخلفون عن القتال أو يتوقفون ولقد كان عمار بن ياسر أشد أصحاب على تحريضا على الحرب بل إنه كان يحارب تجاه عمرو بن العاص وهو يرتجز:

نحن ضربناكم على تنزله واليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

وكان يقول: والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل»^(٢).

ولقد نسب الرواة والمؤرخون إلى أم الخير بنت الحريش البارقية خطبة رائعة قوية في يوم صفين كشفت النوازع وأوضحت الدخائل ووضعت

(١) الفتنة الكبرى «على وبنوه» د. طه حسين ص ٨٨.

(٢) الفتنة الكبرى «على وبنوه» ص ٨٥.

النقاط على الحروف.. قالت^(١):

«أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعمكم في عمياء بهمة ولا سوداء مدلهمة فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفرارا عن أمير المؤمنين؟ أم فرارا عن الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» اللهم قد عيل الصبر وانتشرت الرعية، وبيدك يا رب أزمة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصديق الأكبر إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس.. قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون.. صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وعمّا قليل ليصبحن نادمين».

بل وأكثر من ذلك رفض كثيرون من جند على التحكيم وإيقاف القتال ومعنى ذلك أن الفرقة قد وقعت في صفوف جيش على ففريق يرى أنه ينبغي قبول التحكيم لأنهم إنما يحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دعوا إليها، وفريق آخر يرى وجوب مواصلة القتال لأنها خدعة حربية لجأ إليها معاوية وأصحابه

(١) تاريخ الطبري ج ٥ - تاريخ اليعقوبي ج ١ - مروج الذهب ج ٢.



حينما شعروا بالهزيمة.

ولقد كان قبول على التحكيم سببا في خروج فريق من جنده عليه هم الذين عرفوا باسم «الخوارج» وكان رأيهم أن التحكيم خطأ وأن حكم الله في الأمر واضح جلي فإن إمامة على صحيحة وأن هؤلاء بغاة يجب قتالهم. والسر في معارضة هؤلاء الخوارج للتحكيم مع أن نصوص القرآن تأمر به عند التنازع هو أنهم يرون أن عليا إمام ببيع بيعة صحيحة فليس له أن يقبل التحكيم مع جماعة خرجوا عليه بعد أن بين القرآن ما يتخذه الإمام حيال أمثالهم في عبارة واضحة لا يعتورها لبس ولا خفاء فالله عز وجل يقول.. وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفي إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون»^(١). ومعاوية وأصحابه قد بغوا ورفضوا الانصياع للحق وتمادوا في الباطل وردوا السفراء وركلوا دعوة الصلح واقتتلوا وكان لابد من ردع هذه الفئة الباغية حتى تفي إلى أمر الله وحين شعروا بالهزيمة وأيقنوا من الضياع رفعوا المصاحف مكرا وخديعة والاستجابة لهم حينئذ غفلة وسوء بصر. ولقد كان الإمام على نفسه يرى هذا الرأي غير أنه جوبه برأى آخر لكثرة من جنده يطلبون إيقاف القتال والخضوع للتحكيم فنزل على رأى الكثرة وثار عليه الآخرون فقد حاربوا مؤمنين بأن الحق في جانبه وكان الأجدر به أن يمضى في حربهم حتى

يدخلوا فيما دخل فيه عامة المسلمين أو يقتلوا عن آخرهم وملاينة هؤلاء إدهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله وفاعل ذلك في رأيهم ضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي بعد قبوله للتحكيم ولا حرمة لأتباعه وهم وأصحاب معاوية في نظرهم سواء وارتفع شعارهم الثوري مجلجلا في كل مكان: «لا حكم إلا لله» واستقروا بـ «حروراء» قرب الكوفة وجرت الأمور على غير ما كان متوقعا: خديعة ومكرا ودهاء في جانب وغفلة وعجزا وسوء رأى في جانب آخر، وتلاعب عمرو بن العاص برفيقه في التحكيم أبى موسى الأشعري وسخره لهواه وقاده مستسلما إلى خلع صاحبه أمير المؤمنين على في الوقت الذي دعم فيه عمرو صاحبه معاوية.

ولقد روى المؤرخون أن عليا لم يكن راضيا عن اختيار أبى موسى وأوردوا له قوله «قد عصيتموني أول الأمر فلا تعصوني الآن» فأبوا إلا أبى موسى الأشعري فأذعن على كره منه^(١). ويبدو أن خيرة أنصار على كانوا على تخوف من أبى موسى فلقد روى المسعودي^(٢) أنه لما دنا وفد على من موضع اجتماع الحكمين قال عبد الله بن العباس لأبى موسى: إن عليا لم يرض بك حكما لفضل على غيرك، المتقدمون عليك كثيرون، وإن الناس أبوا غيرك وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم وقد ضم داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه الذين بايعوا أبى بكر وعمر وعثمان وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة وفي نفس

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠، ٢٢ - اليعقوبى ج ١ ص ٢١٨ الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٨٧، الطبرى ٦/٣٠.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤، ص ٢٥.

الوقت كان معاوية يوصى عمرووا بقوله «يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى وأنا وأهل الشام راضون بك وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأخذ الجد ولا تلقه برأيك كله»^(١).

ولقد استطاع عمرو بدهائه وسعة عقله وغفلة صاحبه أن يجعل أبا موسى يقر بأن عثمان قتل مظلوما، وأن لمعاوية الحق في المطالبة بدمه المسفوك كما جعله يعلن خلع صاحبه الإمام على وخلع معاوية أيضا ويتظاهر عمرو بتوقير أبي موسى وتعظيمه ويقدمه ليعلن رأيه في الناس، ولقد حذر عبد الله بن عباس أبا موسى قائلا له: ويحك، إني والله لأظن عمروا قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه ليتكلم بذلك قبلك ثم تكلم أنت بعده فإن عمروا رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت في الناس خالفك» ولم يستمع أبو موسى ولم ينتصح فتقدم ليعلن للناس: «أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية وإني قد خلعت عليا ومعاوية» وينهض عمرو ليضرب ضربة الدهاء فيعلن عن خلعه عليا كما خلعه صاحبه لكنه يصمم على تثبيت معاوية «ويذهل أبو موسى ويطير لبه وتتكشف غفلته فينطلق على راحلته قاصدا مكة بعد أن أفسد على الإمام على بيعته ومكن الأمر لمعاوية^(٢)..

(١) نفس المرجع.

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٩ - العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٩ بينما يرى المسعودي أنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب في الصحيفة ولم تكن هناك خطب مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧.

هكذا كان أبو موسى - من وجهة نظري - خير من تتمثل فيه الغفلة وسوء الرأي على عكس ما يرى بعض الباحثين من المؤرخين^(١). كذلك مما لا جدال فيه أن أبا موسى الأشعري كان شرا ووبالا على الإمام علي وأن عمرو بن العاص كان خيرا ويمنا على معاوية، كذلك فإن التحكيم كان في صالح معاوية وأهل الشام بقدر ما كان نكبة على الإمام علي وأهل العراق.

ولقد كان لهذه النتيجة المؤسفة أثر عميق في نفوس كثير من أتباع علي وأشياعه كما كان لها أثرها البالغ في إشعال ثورة الخوارج وإلهاب حركتهم المعادية لكل المسلمين المخالفين لهم ولكل الطوائف والفرق التي ظهرت في الميدان على عهدهم - فهؤلاء جميعا - من وجهة نظر الخوارج - قد غيروا وبدلوا وانحرفوا عن كتاب الله وخالفوا أمره فحقت اللعنة عليهم جميعا. وارتفع الشعار قويا عنيفا في وجه علي أينما كان وحيثما حل:

« لا حكم إلا لله..... »

حتى اضطر إلى التصريح بقوله «الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل.. إن تكلموا حججناهم وإن خرجوا علينا قاتلناهم» وعظمت الفتنة وتوجه نحو ستة آلاف خارجي إلى النهروان بعد أن أسندوا أمرهم إلى عبد الله بن وهب الراسبي^(٢).

(١) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٨٩ - الدكتور طه حسين - الفتنة الكبرى علي وبنوه ص ١١١.
(٢) الفخرى ص ٩٠ والطبري ج ٦ ص ٤٦.

وفى «النهران» دارت رحى معركة رهيبة بين الخوارج وبين الإمام على وجنده أتت على ألفين وثمانمائة من الخوارج وفر من استطاع الفرار إلى البحرين والأحساء وفى حلوقهم غصة وفى نفوسهم مرارة وفى قلوبهم حقد دفن على الإمام على وأتباعه وجدا على الصرعى من إخوانهم فى معركة النهروان. ولقد أدت هزيمة الخوارج فى النهروان إلى تركيز المذهب الخارجى وإقامته على قواعد ثابتة وأصول راسخة. ونظر الخوارج إلى قتلى النهروان نظرتهم إلى الشهداء الأبرار الذين باعوا أنفسهم وأرواحهم لله. وأخذوا يتحينون الفرصة للأخذ بثأرهم فتعاقد ثلاثة منهم بجوار الكعبة على اغتيال على ومعاوية وعمرو والثلاثة هم: عبد الرحمن بن ملجم والحجاج بن عبد الله الصريمى (البرك) وزادويه مولى بنى العنبر بن عمرو ابن تميم^(١).

وتشاء إرادة الله أن ينال عبد الرحمن بن ملجم من أمير المؤمنين على ويفشل صاحبا. وتمضى بنا الأحداث بعد مقتل الإمام على وإعلان ابنه الحسن تنازله عن الخلافة لمعاوية تحقيقاً للوحدة وجمع الكلمة وتلافياً للشر والفساد. وقد عمل معاوية بكل ما أوتى من قوة ودهاء وترغيب وترهيب على توطيد ملكه وتدعيم أسسه فى ظروف صعبة كل الصعوبة عسيرة كل العسر^(٢).

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٥، ص ١٢٦.

(٢) فجر الإسلام: أحمد أمين ج ١ ص ٣١٤، ضياء الدين الرئيس. النظرات السياسية الإسلامية ص ٤٢ - ٤٧.

هؤلاء هم الخوارج الذين كان لهم شأن كبير وأثر بالغ في التاريخ الإسلامي وكان لهم أيضاً أدب متميز فريد بين آداب الطوائف والفرق.. والخوارج: مأخوذة من الخروج فراراً من الباطل وإعلاء لكلمة الله: «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله»^(١) أو لخروجهم على الإمام علي، ويطلق عليهم «الحرورية» نسبة إلى حر وراء بعد حذف الزوائد^(٢) «قرية قرب الكوفة على بعد ميلين» ويطلق أيضاً عليهم «المحكمة» لرفعهم شعار ثورتهم «لا حكم إلا لله» وهم الشراة الذين غضبوا للحق وباعوا أنفسهم لله «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله»^(٣).

هؤلاء هم الخوارج ذوو البأس والجلد والصلابة والصمود والثبات على ما يعتقدون أنه الحق مهما كانت التضحية ومهما جل الخطب.. هؤلاء هم الخوارج وما يتصفون به من صراحة وجرأة وثورية وفدائية ولا غرو فكثرتهم الغالبة من عرب تميم المضربية والأزد اليمانية فرسان الحروب الفارسية وأبطالها وأبناء القبائل الصحراوية الذين نزلوا البصرة والكوفة^(٤) مع من انضم إليهم من الموالى من غير العرب واعتنقوا مذهبهم ودانوا بعقيدتهم^(٥) هؤلاء هم الخوارج الذين لم تظهر لهم حركة إلا في أعقاب «صفين» وبعد

(١) سورة النساء الآية ١٠٠.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١٧.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٠٧) وانظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ج ١ ص ١٩١.

(٤) الخوارج في الإسلام عمر أبو النصر ١٤، ٢٠، ٢١، تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب ص ١٤٠.

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٥٩.

قبول على التحكيم، ولم يتدعم موقفهم كحزب له شهادته وضحاياه إلا في أعقاب النهروان: فهم ليسوا امتداداً لحركة المرتدين على عهد أبي بكر الصديق كما يدعى بعض الباحثين^(١) لأن الردة كفر وخروج على الدين وعلى الخليفة الشرعي للمسلمين وجرأة على الحق في سبيل الباطل أما حركة الخوارج فقد كانت غضبة من أجل الدين ومقاومة أهل الباطل الذين انحرفوا عن الحق - من وجهة نظرهم - وحادوا عن طريق الرشاد أو الذين فرطوا في حقوقهم وتهاونوا مع أهل الضلال والخوارج لم يحجموا عن زكاة أو صلاة بل على العكس من ذلك كانوا يضحون بالنفوس والأرواح في سبيل العقيدة والمبدأ.

كما أنهم ليسوا هم الثوار الذين تمردوا على عثمان وقتلوه^(٢) فهذه حركة سياسية تائفة كان لها ظروفها وأسبابها ولها أيضاً غايتها المحدودة فقد طلب الثوار من عثمان تسليم مروان بن الحكم لثبوت إدانته وظهور جريمته لكن الخليفة قد أبى فما كان منهم إلا أن حصروه في داره متوجهين إليه بالمطالب الآتية على لسان الأشتر النخعي إما أن يخلع لهم أمرهم ليقلدوه من شاعوا وإما أن يقتص من نفسه وإما القتل^(٣). وقتلوه... ولم تكن حركة الخوارج - كحزب ومذهب - قد ظهرت بعد ولو أننا أطلقنا لفظ «الخوارج» على كل خارج لامتلاً التاريخ وصحفه بخوارج لا حصر لهم.

(١) العبادي: صور من التاريخ الإسلامي ص ١٧٦.

(٢) عبد المتعال الصعيدي - تاريخ العرب ص ١٩٦.

(٣) من أدب الحركات الإسلامية د. بدير متولى حميد ص ١٥.

كما أنهم لم يكونوا أصلاً من الشيعة حزب علي^(١) فإن الشيعة كحركة وحزب لم تتبلور إلا بعد اغتيال الإمام علي ولم تتدعم إلا بعد مقتل الإمام الحسين في كربلاء وشعور أتباعه بالندم على تهاونهم في حقه.. نعم كانت هناك جذور وتحركات سابقة لكن علياً نفسه لم يرض عنها وهاجمها كيف وبعض فرق الشيعة تقدس علياً إلى حد غير مقبول أو معقول بينما مذهب الخوارج يقوم على الأخوة والمساواة بين الناس وأن القدسية لله؟! وهم يخطنون علياً لقبوله التحكيم بل ويكفرونه ويرون أن الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفئالها. كيف والشيعة من تمام تعاليمهم التقية والتستر إلى أن تسنح الفرصة فيجهروا بدعوتهم؟ بينما يخالفهم الخوارج في ذلك فالخارجي يعلن الخروج على الإمام ولو كان وحده ويحاربه ولو كان في نفر قليل^(٢).

فهذه بعض مظاهر الاختلاف الشديد بين الفرقتين فكيف يتأتى الحكم بأن الخوارج كانوا أصلاً من الشيعة اللهم إلا إذا أخذنا في الاعتبار المعنى اللغوي للتشيع وليس المعنى السياسي!!

نعم هؤلاء هم الخوارج الذين استمدوا مبادئهم وعقائدهم من تعاليم الإسلام الصريحة ومن مظاهر كتاب الله وسنة رسول الله كما اتسع لهم فهمهما^(٣) ولم تكن أبداً عقيدة الخوارج متأثرة بمعتقدات الموالى من المسيحيين والمجوس الذين أسلموا وانضموا إلى حركة الخوارج - كما يدعى بعضهم^(٤).

(١) د. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٩١.

(٢) ضحى الإسلام: أحمد أمين ج ٣ ص ٢٤٩.

(٣) ضحى الإسلام: ج ٣ ص ٣٣٤.

(٤) عمر أبو النصر - الخوارج في الإسلام ص ٢٠.

بل على العكس من ذلك تماماً فلقد تمكنت هذه الحركة من أن تطوى هؤلاء جميعاً في خضم مبادئها وعقائدها بينما وقع كثير من الفرق الأخرى تحت تأثير عديد من العقائد الأجنبية الدخيلة^(١).

هؤلاء هم الخوارج الذين التزموا بالجانب العملي التطبيقي في المنهج السياسي المصطبغ بالصبغة الدينية فلم تكن دعوتهم نظرية ذات طابع جدلي فحسب، ولم يكونوا محايدين سلبيين كما كانت عليه فرقة المرجئة التي التزمت بالحياد في المسألة السياسية وامتنعت عن الخوض في الحروب القائمة ولم تكلف نفسها مشقة البحث عن الحق والباطل ولم تتخذ حكماً على أحد بخطأ أو صواب^(٢).

وإذا كان معاوية فقد استطاع أن يسكت الشيعة فإنه لم يستطع أن يرهب الخوارج فلقد كانوا أصلب عوداً وأشد بأساً وأعظم مراساً وأجل خطراً وكان من الصعب إقناعهم وردهم إلى الجماعة بل إنهم كانوا يرون أن من يخالفهم رأيهم من المسلمين كفار تحل أموالهم ودمائهم، وكانوا يحقدون على معاوية ويمقتونه مقتاً شديداً فهو في نظرهم خليفة غير شرعي لم يأخذ البيعة بإجماع ومع ذلك فهو غير أمين على أموال المسلمين. وأصر الخوارج على قتال معاوية وتمكنوا من هزيمة جيش بعث به من أهل الشام لكن معاوية اعتصم بدهائه وحرص أهل الكوفة على قتالهم^(٣). ثم التقوا بالمغيرة بن شعبة الذي ضيق عليهم الخناق حتى تركوا الكوفة، وفي عهد زياد بن أبيه ضعفت شوكتهم فقد كان زياد على درجة بالغة من القسوة والشدّة والحزم وتحرك الخوارج من جديد حين ولى عبيد الله بن زياد البصرة

(١) ضحى الإسلام: ج ٣ ص ٢٠٩، ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٢) فجر الإسلام: لأحمد أمين ص ٣٤٣.

(٣) الطبري ج ٦ ص ٩٥.

سنة ثمان وخمسين وكانت بينهما معارك هائلة برزت فيها بطولات فذة. وثار الخوارج مرة أخرى بعد أن حاولوا إقناع ابن الزبير بمبادئهم بلا جدوى فانصرفوا عنه وتوجهوا إلى البصرة فنهض إليهم أهلها بقيادة المهلب بن أبي صفرة لكنهم ظلوا صامدين في مواجهة الزبيريين حتى قتل ابن الزبير.

ولقد وجه عبد الملك بن مروان همه إلى الخوارج فولى على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي أحد الجبابرة العتاة الذي أسلم أمر الحرب بدوره إلى المهلب بن أبي صفرة فتمكن من الحرورية حتى قضى عليهم وفر زعيمهم قطرى بن الفجاءة ثم حارب الصفرية وعلى رأسهم صالح بن مسرح التميمي ومعه شبيب بن يزيد الشيباني وكانوا قد هزموا الجيش الأموي وغنموا منه سلاحاً وأموالاً ودخل شبيب الكوفة وأثار الفرع فأستجد الحجاج بعبد الملك فبعث إليه بالإمداد والجيوش حتى تمكن الحجاج منهم وهزمهم.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز خرج شوذب اليشكري لكنه هزم في عهد يزيد بن عبد الملك عام إحدى ومائة هجرية.

وفي عهد مروان بن محمد ثار الضحاك بن قيس الشيباني وزحف على الكوفة وكان ذلك عام سبعة وعشرين ومائة هجرية وقد اعتصم بجيوشه الكثيفة «بنصيبين» لكن جيوش مروان الثاني تمكنت منه وهزمته.

وفي عام تسعة وعشرين ومائة قاد أبو حمزة الخارجي جيشاً عظيماً توجه به إلى مكة والمدينة وكانت موقعة «قديد» التي انتصر فيها أبو حمزه وتمكن من احتلال المدينة واستتب له الأمر فيها ثم قصد إلى الشام وفي وادي القرى التقت به جيوش مروان بن محمد فهزمته وتمكنت منه وقتلته ثم توجهت

﴿ ٥٦٥ ﴾

إلى اليمن وهزمت عبد الله بن يحيى الذى بايعه أبو حمزة بالخلافة وقتلته أيضاً...^(١) وهكذا تمكن بنو أمية من إخماد ثورة عاتية قادها الخوارج ضد حكمهم ولم تنته إلا فى مرحلة متأخرة أقل فيها نجم بنى أمية ودالت دولتهم وخلا الميدان لحكم جديد وعهد جديد بقيام الدولة العباسية.

ولم تكن نظرة الخوارج للخلفاء من بنى العباس مختلفة عن نظرتهم للخلفاء من بنى أمية فلقد كانوا يرون أنهم غير أهل للخلافة ولا يصلحون لها ولم يختاروا اختياراً صريحاً وكلهم يجب الخروج عليه ومقاتلته وعزله وقتله إن أمكن. وهكذا هب الخوارج فى وجه العباسيين وحملوا لواء الثورة على العهد الجديد تسيرهم مبادئهم وتحكمهم عقائدهم وتقودهم آراؤهم غير أن قوتهم خانت حميتهم ومقدرتهم تخلفت عن همهم فلم يكونوا على مستوى ما كانوا عليه فى العهد الأموى قدرة وقوة وبأسا وصمودا وثورة ونضالاً.....

فقد تحرك الخوارج الإباضية فى عمان وعلى رأسهم «الجلندى» فى عهد السفاح وتمكن منهم آخر الأمر قائده خازم بن خزيمة فأحرق عليهم بيوتهم وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف أرسلت رءوسهم إلى السفاح^(٢).

وثار الخوارج بالجزيرة وعلى رأسهم «مُلبَّد بن حرْملة» فى عهد المنصور وتوالى عليهم قواد المنصور حتى هزموهم وقتل مُلبَّد ومعه كثيرون وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين ومائة هجرية.

(١) أخبار الخوارج فى الكامل للمبرد ج ٢ من ص ١٠٥ وما بعدها وانظر فجر الإسلام لأحمد أمين مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعري ج ١ ص ١٥٦ والكامل لابن الأثير والأخبار الطوال للدينورى.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣.

﴿ ٥٦٦ ﴾

واشتعلت ثورة الخوارج في المغرب بقيادة أبي حاتم الإباضي وانضم كثير من البربر إلى الخوارج واستمرت جهود بنى العباس نحو خمس عشرة سنة بذلت لإخماد هذه الثورة في نحو ثلثمائة وخمس وسبعين وقعة. وفي عام مائة وستين للهجرة تمكن المهدي من القضاء على «يوسف البرم» وأتباعه الذين ثاروا بخراسان منكرين على المهدي سيرته كما قضى أيضا في عهد المهدي على ثورة «يس التيمي» بالموصل.

وفي عام واحد وسبعين ومائة للهجرة تمكن الرشيد من قتل «الصخّح» الذي خرج بالجزيرة واستولى هو وأتباعه على ديار ربيعة. ولقد كانت ثورة الوليد بن طريف الخارجي بالجزيرة عام ثمانية وسبعين ومائة للهجرة مثار صراع عنيف على عهد هارون الرشيد الذي سير إليه يزيد بن مزيد الشيباني الخبير بخطط الخوارج وأساليبهم فتمكن من هزيمة الوليد بعد معارك عنيفة انتهت بزوالهم^(١).

هكذا كانت شوكة الخوارج ضعيفة في عهد بنى العباس ولم يكونوا على مستوى القوة العظيمة والقدرة الفائقة التي كانوا عليها في العصر الأموي. بل كانت هناك حشجة وأنفاس ضعيفة منقطعة لاهثة تبدو من حين لآخر وكأنها صحوة الروح في عهد السفاح والمنصور والمهدي والرشيد وكان آخر العهد بهم كما أخبر المسعودي^(٢) خروج ربيعة المعروف بفروان وقتله أبو شعيب. ولم تكن تلك كما قلت سوى حشجة استسلمت بعدها حركة الخوارج لجمود وخمود وتلاشت لضياح. والله الأمر من قبل ومن بعد وهو خير الحاكمين».

(١) أخبار الخوارج في العصر العباسي ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٣.

﴿ ٥٦٧ ﴾

(٢)

أشهر طوائف الخوارج وأبرز اتجاهاتهم السياسية وآرائهم الدينية:

أحداث خطيرة، وفتن جسيمة، خرجت من شرارة فالتهمت واشتد أوارها فأنت على كل شئ ولم تبق على أى شئ، فقد قضت على الإمام على وخلافته، وهددت الأمويين وأربكتهم حتى سقطت دولتهم مقضيا عليها بعد صراع عنيف أخذ عليها أقطارها وشغلت الأمة بصراع دوار بين أبنائها فى وقت كانت فيه الحاجة القصوى والضرورة الملحة تقتضى جهادا متواصلا لإعلاء كلمة الله ونشر دينه وتدعيم الدولة الممتدة المترامية الأطراف.

وطوال هذا الصراع المرير كانت طوائف الخوارج تتوالى وفرقهم تتعدد ومذاهبهم تنتوع واتجاهاتهم تتوزع. ولقد كان لكل فرقة ولكل طائفة مذاهب واتجاهات وآراء ومبادئ تأثر بها الأدب فعبر عنها وتحرك فى إطارها وسار على دربها فكان أدبهم بحق تلك المرأة المصقولة المجلوة التى تتعكس عليها آراؤهم وعقائدهم واتجاهاتهم.

لذا فإننا نعرض لأشهر هذه الطوائف والفرق.

الحكمة الأولى:

وهم الطلائع الأولى من الخوارج الذين رفعوا شعار «لا حكم إلا لله» وثاروا على وقف القتال يوم «صيفين» واحتجوا عليه بالسيف والقوة ثم دعموا هذا الاحتجاج بالعقيدة واللسان، وحين الانصراف من صيفين اعتزلوا الجماعة وفارقوا القوم فى «حروراء» بنحو اثنى عشر ألفا وأطلق عليهم «الحرورية». ولقد دارت محاورات بينهم وبين الإمام على ورسله إليهم انتهت باقتناع

﴿ ٥٦٨ ﴾

بعضهم ودخولهم الكوفة لكن الخلاف دب بينهم وبين الإمام من جديد فتسللوا إلى النهروان بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي ومعه حر قوص بن زهير البجلي «المعروف بذي الثدية».

وفي ثورة وتمرد وعنف أقدموا على ارتكاب أعمال رأى معها الإمام على ومعه أهل الكوفة أن يستأصل شأفتهم. ودارت عليهم رحى معركة رهيبة أتت عليهم فى موقعة «النهروان» ولم ينج منهم غير تسعة تفرقوا إلى سجستان واليمن والبحرين وعمان وأرض الجزيرة^(١)، وكان من بين هؤلاء الناجين «عروة بن أديّة» الذى كان له ولأخيه من بعده أبى بلال مرداس شأن عظيم، ولقد قدر لعروة فيما بعد أن يقع فى قبضة زياد بن أبيه أمير العراق من قبل معاوية فقتله بعد حوار مثير بينهما^(٢).

ولقد ظل أمر الخوارج كذلك حتى ظهر نافع بن الأزرق. وهؤلاء المحكمة يجمعون على أنه لا حكم إلا الله وأن عثمان وعلياً وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضى بالتحكيم كلهم كفره وقتالهم واجب وأن الإمامة حق لكل مسلم يكون أهلاً لها، ووجوب عزل الإمام الجائر وقتله وتكفير العاصى من المسلمين، وبجعلهم الإمامة حقاً لكل مسلم عدل كانوا يمثلون الجبهة الديمقراطية أو «الجمهوريين» كما يسميهم.. «فان فلوتن»^(٣).

كما أن عنفهم وتشددهم وتطرفهم يضعهم - على ما أعتقد - فى

(١) انظر مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٩٤. والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٦٢.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١٦.

(٣) تاريخ الإسلام السياسى حسن إبراهيم ج ١ ص ٣٠٠.

مصاف من يسمون في عصرنا باليسار المتطرف. ولقد دعم هذه النزعة المتطرفة من انضم إلى صفوفهم من قبائل البدو ورجال الصحراء ذوى الجلد والصرامة والخشونة وجماعة القراء من جند على ذوى الغيرة والحمية والحماس الدينى.

ولقد كانوا بحق أصحاب لسن وفصاحة وبيان وفطرة مستقيمة وطبيعة موالية وقد تجلى ذلك كله فى محاوراتهم وخطبهم ورسائلهم وأشعارهم وأقوالهم الماثورة مما يعكس بحق أصالة المذهب وروح العقيدة على ما سنبينه إن شاء الله.

الأزارقة:

وهم أتباع نافع بن الأزرق الحنفى المكنى بأبى راشد، وكانوا أكثر عددا وأعظم شأنا وأقوى بأسا وخطرا وأشد تطرفا: فهم يكفرون عليا وأصحابه وجميع المسلمين ولا يحلون أكل ذبائحهم ولا الزواج منهم ولا يجيبون داعيهم إلى الصلاة ويعتبرون ديارهم ديار حرب ويحلون قتل نساءهم وأطفالهم والمسنيين منهم وأكثر من ذلك كانوا يرون موجبا للخدر بالجهد مع المخالفين لهم وتكفير القعدة عن الجهاد منهم. كما أوجبوا امتحان من ينضمون إليهم^(١) ومرتكب الكبيرة عندهم كافر. ولقد رأوا إسقاط حد الرجم عن الزانى المحصن لأنه لم يرد نص قرآنى فيه، كما أسقطوا الحد عن قذف الرجل المحصن...

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٣.

والأزارقة متطرفون مغالون في عقائدهم وعبادتهم ومن ثم فإن المسلمين يكفرونهم لأنهم قد أحدثوا بدعا ووضعوا في الدين ما ليس منه^(١).

وفي ضوء هذه الآراء والمعتقدات نرى أن الأزارقة لم يقيموا للاجتهاد وزنا ولم يعتبروه أصلا في الوصول إلى الأحكام الشرعية كما أنهم اعتبروا القرآن وحده هو المصدر لهذه الأحكام ولا اعتبار لغيره وبهذا الشطط في الرأي والعقيدة تفككت عرا الوحدة وانفصمت أواصر الجماعة بعد أن كانوا على قلب رجل واحد وبعد أن غلبوا على الأهواز وإقليمي فارس وكرمان وكان من مظاهر هذا التصدع أن خرج على نافع بن الأزرق فريق ممن كانوا معه - يمكن أن نطلق عليهم خارجة الخوارج فقد أعلنوا البراءة من نافع وساروا إلى الإمامة منضمين إلى نجدة بن عامر فكان منهم طائفة «النجادات»... ولقد ثبت مع نافع آخرون كانوا نوى شوكة وبأس وإقدام وظلوا في صراع طويل مرير مع أعدائهم قتل فيه نافع بن الأزرق.. وابن الماحوز من بعده ثم قطري بن الفجاءة ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك. وكان لهذه الطائفة أدب رائع عبر أصدق تعبير وأبلغه عن عقائدهم ومذاهبهم وآرائهم وصور بحق طبائعهم وأخلاقهم وحرصهم على الموت في سبيل العقيدة، كما استوعب مراحل الصراع المتعددة في شمول ودقة على ألسنة خطبائهم وزعمائهم وشعرائهم وأهل الجدل منهم فكان من ذلك كله أدب متميز بخصائصه وسماته وملامحه، فهو أدب قوى ثورى يلتزم بالبذل والتضحية وتقرأ فيه معنى الفداء والإخلاص. وتلمس فيه روح العقيدة يسرى في كل اتجاه.

(١) المرجع السابق - الملل والنحل ج ١ ص ١٦٣.

النجذات «العاذرية»

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى ويطلق عليهم «العاذرية» لأنهم يعذرون بالجهل فى أحكام الفروع... ولقد اتسع سلطان نجدة وامتدت آفاق حكمه حتى دانت له بالطاعة أقاليم الجزيرة العربية المطلة على المحيط الهندى والخليج الفارسى ولكن لم يدم هذا السلطان طويلاً حيث دب بينه وبين أصحابه الخلاف الذى انتهى باغتياله على يد «أبى فديك»^(١).

ولقد خالف النجذات الأزارقة فى أمور أهمها^(٢):

أن الاجتهاد عندهم هو الطريق الموصل إلى نصف الدين - أما الأزارقة فلا يعترفون به، والإيمان عندهم معرفة وإقرار، وارتكاب الكبيرة لا يكفر ولا يخرج عن الإسلام، وعند الأزارقة الإيمان قول وعمل، ومرتكب الكبيرة كافر. والتقية عندهم جائزة فى القول والعمل - وهى غير جائزة مطلقاً عند الأزارقة. والنجذات لا يكفرون من لم يهاجر إليهم كما تفعل الأزارقة. والنجذات لا تستبيح دماء النساء والأطفال والمخالفين من المسلمين والأزارقة يستبيحون هذه الدماء. كما أن النجذات يرون أن نصب الإمام غير واجب وأن على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم^(٣) وهم فى هذا يخالفون كل الطوائف الإسلامية التى انعقد إجماعها على وجوب نصب الإمام.

وللنجذات أدب يتمثل فى محاورات ورسائل وخطب وبعض

(١) مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعري ج ١ ص ١٦٤.

(٢) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٦٣، ص ١٦٤.

(٣) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٦٨، ص ١٦٩.

المقطوعات الشعرية وأدبهم أدب احتجاج وجدل يتسم بالفكر وينزع إلى المنطق والحجة وتتجلى فيه سعة الأفق وشمول النظرة وغازرة الاطلاع والبصر بالأحكام. وسأورد نماذج من أدبهم فى حينه بمشيئة الله.

الصفرية:

وهم أتباع زياد بن الأصفر ويقال لهم «الأصفرية» ولوا عليهم أبا بلال مرداس بن أدية بعد عبد الله بن وهب الراسبى وحر قوص بن نهير، ومن بعد أبى بلال بايع الصفرية عمران بن حطان السدوسى والصفرية لا يكفرون القعدة عن القتال من إخوانهم ولا يسقطون الرجم عن الزانى المحصن ولا يبيحون قتل نساء وأطفال المخالفين ولا يرون كفرهم وخلودهم فى النار كأهلهم وقد أجازوا التقية مع هذا فى القول دون العمل، أما رأيهم فى ارتكاب الكبائر فقد انقسموا فيه إلى طوائف: طائفة ترى أن صاحب كل ذنب مشرك، وطائفة ترى تكفير صاحب كل ذنب ليس فيه حد معلوم كترك الصلاة والصوم، أما ماله حد معلوم فهو غير داخل فى الكفر، وطائفة ثالثه تزعم أن الكفر لا يكون إلا بحكم الوالى به بعد إقامته الحد على المذنب والأحكام الشرعية عندهم تستتبط من القرآن الكريم ومن الحديث النبوى.

وقد حكى عن زياد بن الأصفر أنه كان يقول:

«نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندرى لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله وإن الشرك شركان: شرك هو طاعة الشيطان، وشرك هو عبادة الأوثان، والكفر كفران: كفر بالنعمة، وكفر بإنكار الربوبية، والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سنة،

﴿ ٥٧٣ ﴾

وبراعة من أهل الجحود فريضة^(١). وللصفرية أدب متميز بما فيه من قوة وجزالة وصدق وحماس في سبيل العقيدة، كما أن أدبهم يتسم بكثرة استمداد معانيه من القرآن الكريم والحديث الشريف وتلمس فيه ذلك الجانب الروحي الذي يدل على عمق التدبير، كما تتسم في أعطافه روح الإخلاص والوفاء يسرى في كل كلمة وعبرة ومن بينهم شعراء وخطباء كثيرون نذكر منهم عمران بن حطان وأبا بلال مرداس وعبد الله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير والعالم اللغوي الإخباري النحوي أبو عبيدة معمر بن المثنى كان صفرياً.

الشيبية:

وهم أتباع شبيب بن يزيد الشيباني الذي كان يكنى بأبي الصحاري. وفقههم هو صالح بن مسرح التميمي الخارجي، وقد ينسبون إليه فيطلق عليهم «الصالحية»^(٢) ويسمون «مرجئة الخوارج» لما ذهبوا إليه من التوقف في أمر صالح بن مسرح في شأن أحكام حكم بها، وفي أمر الراجعة الذين تخلوا عنه^(٣).

ولقد حكى عن جراءة شبيب واستبساله وبراعة قيادته وصموده أنه هزم عشرين جيشاً للحجاج في مدة سنتين، وقد تجاوز كل حد في جرأته حين هاجم الكوفة ليلاً في ألف من أتباعه وكانت معه أمه غزاة وامراته جهيزة في مائة

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٨٤، ص ١٨٥.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٦٥.

(٣) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ج ١ ص ١٨٨.

وخمسين امرأة قد تقلدن السيوف واعتقلن الرماح^(١). وقد مات شبيب غريقاً وهو يعبر نهر «دجيل ويردد قول الله تعالى.. ذلك تقدير العزيز العليم» وأجمع أتباعه شبيب على مبايعة.. غزاة» بالإمامة وبذلك كانوا هم الطائفة المسلمة الوحيدة التي أجازت إمامة النساء طالما كن لها أهلاً وعلى تحمل أعبائها ومسئولياتها أقدر^(٢). لكن جند العراق لم يلبثوا أن عبروا إلى الخوارج وفتكوا بهم وقتلوا غزاةً وجهيزة وأسروا آخرين.

وفى رأى الشيببية أن الرجل يكون مسلماً إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتولى أولياء الله وتبرأ من أعدائه وأقر بما جاء من عند الله جملةً وإن لم يعلم سائر ما افترض الله سبحانه عليه مما سوى ذلك أفرض هو أم لا، فهو مسلم حتى يبتلى بالعمل به فيسأل. وقالوا في أطفال المؤمنين إنهم مؤمنون أطفالاً وبالغين حتى يكفروا وإن أطفال الكفار كفار أطفالاً وبالغين حتى يؤمنوا^(٣).

والشيببية على دراية فائقة بالفقه والأصول والأحكام وكان منهم الخطباء والشعراء والقصاص كصالح بن مسرح التميمي وقد وردت على ألسنة الشعراء أطراف من أخبارهم وخاصة ما يتعلق منها بغزاة التي هرب منها الحجاج^(٤).

(١) التبصير للإسفرائيني ص ٣٦ والفرق بين الفرق ص ٩٠ وفي كثير من الأصول أن غزاة زوج شبيب.

(٢) الخطط للمقرئ ج ٢ ص ٣٥٥.

(٣) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ج ١ ص ١٨٠.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٣ ص ١٦٠.

البيهسية:

وهم أتباع أبي بيهس الهيصم بن جابر من بنى سعد بن ضبيعة بن قيس^(١). ومن تعاليمهم أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم والولاية لأولياء الله تعالى والبراءة من أعداء الله^(٢). والإيمان عندهم هو أن يعلم كل حق وباطل، وأن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل. أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل الإقامة معهم كما فعل المسلمون في إقامتهم. ومن آراء بعض فرقهم أن أطفال المؤمنين مؤمنون وأطفال الكافرين كافرون، ووافقوا القدرية في القدر وقالوا إن الله تعالى فوض إلى العباد فليس لله في أعمال العباد مشيئة. وقال بعض البيهسية إن واقع الرجل حراما لم يحكم بكفره حتى يرفع أمره إلى الإمام الوالى ويحده. وكل ما ليس فيه حد فهو مغفور^(٣). ولقد كان من تعاليم أبي بيهس تكفير الواقفية^(٤) الذين يتوقفون في الحكم على من اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحلال أم حرام لأنه يعتبر أن من بين الأشياء التي جاء بها النبي والتي تجب معرفتها «المحرمات» التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها.

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٦٧.

(٢) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٧٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٤.

(٤) المرجع السابق والبيهسية تسمى من خالفهم من الخوارج «الواقفة».

﴿ ٥٧٦ ﴾

وقد ذكر الشهرستاني «أن الحجاج كان قد طلب أبيبهبس في أيام الوليد فهرب إلى المدينة فطلبه بها عثمان بن حيان المري فظفر به وحبسه وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ويقتله، ففعل به ذلك»^(١).

وللبهبسية بصر بالدين وأحكامه وعلم بالفقه وأصوله وخبرة بأساليب الجدل والحوار ودراية بعلم الكلام وهم كغيرهم من الطوائف فيهم الخطباء والشعراء والقصاص والوعاظ، وأدبهم تتمثل فيه عقائدهم واتجاهاتهم ويعبر بحق عن مذهبهم وحكمهم على الأمور.

ومن بين مؤلفي الكتب والمتكلمين ذكر أبو الحسن الأشعري اليمان بن رباب وقال عنه كان ثعلبياً ثم صار ببهبسيا^(٢).

الإباضية:

وهم أتباع عبد الله بن إياض التميمي الذي خرج في أيام مروان بن محمد فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله بتبالة^(٣).

ولقد أدت ظروف نشأتهم في أيام مروان بن محمد بعد كسر شوكة الخوارج إلى اعتدالهم وميلهم إلى المسالمة فهم لا يكفرون من عداهم ولا يحلون دماءهم ولا يحلون سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة فإن قاتلوهم لم

(١) الملل والنحل القسم الأول ص ١١٣ تخريج محمد بن فتح الله بدران.

(٢) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٨٦.

(٣) الملل والنحل القسم الأول ص ١٢١ تخريج ابن فتح الله بدران.

يستحلوا من أموالهم غير السلاح والخيل ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال، كما يرون أن بلاد مخالفيهم من المسلمين إنما هي ديار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه داربغى، وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم ومرتكب الكبيرة عندهم موحد مؤمن ما دام من أهل القبلة فهو كافر كفر نعمة لا كفر ملة. كما أنهم توقفوا فى أطفال المشركين وجوزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلاً^(١).

هذه هى خلاصة آرائهم ونحن بدورنا نتساءل: ماذا يمكننا أن نفهم من

هذه الآراء؟ وماذا يمكن أن نستنتج منها؟

إن نظرة عابرة وتأملا يسيرا ومقارنة شاملة كفيلة بأن تظهر أمام أعيننا حقائق واضحة: وهى أن الخلف من الخوارج كانوا أكثر من سلفهم تساهلا مع المخالفين، وكانوا أكثر اعتدالا فى آرائهم ومبادئهم وأقرب تفهما لطبيعة الأشياء والأمور وأحسن تمشيا مع الواقع الملموس وأبعد ما يكونون عن الشطط والعسف والتزمت وضيق الأفق... ولعل ذلك يرجع إلى كثرة ما أصابهم من عنت وضيق بعد خوض غمار حروب متتابعة مريرة فتحت عيونهم وأذهانهم على حقائق ومفاهيم استغلقت على الأسلاف منهم. وكان للزمن فى ذلك دوره من غير شك فلقد باعد بينهم وبين تلك التعاليم القاسية والمبادئ المتطرفة التى رفع السلف شعارها فى ثورية وعنف كما كان لهذا التعدد والتفرق والتمزق فى صفوف الخوارج أثره فى الاعتقاد ذاته فكلمما كانت الصفوف موحدة والآراء متلاقية والمبادئ متفقا عليها كما كان لذلك

(١) نفس المرجع.

﴿ ٥٧٨ ﴾

أثره فى العقيدة وصلابتها وحيوية الدفاع عنها والدعوة إليها. وعلى العكس من ذلك كلما تفرقت الكلمة وتعددت الآراء وكثرت الفرق والجماعات كلما تدهورت العقيدة واهتز المبدأ وفتر الحماس وشاع التراخي والتهاون واستسلم الحزب إلى ضياع.

ومع ذلك فلقد كان للخوارج فى أواخر العهد الأموى نشاط ملحوظ أسلم قوة الأمويين إلى تبدد وانهيار وأدى بدولتهم إلى سقوط وزوال.

وقد انتشرت الإباضية فى شمالى أفريقيا وفى عمان وحضرموت وزنجبار واستمرت إلى يومنا هذا كما أورده الأستاذ أحمد أمين^(١) وللإباضية كتب فقهية وأصول كلامية تدل على تطور وبصر ودراية ولهم أدبهم الذى يعبر عن روحهم واتجاهاتهم وميلهم إلى المسالمة وتجنبهم للعنف واعتمادهم على الإقناع والتأثير بالحجة والدليل ولذا فقد كثرت محاوراتهم ومجادلاتهم التى تأثروا فيها إلى حد كبير بمذهب المعتزلة^(٢) ومن مؤلفى كتبهم ومتكلميهم: عبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل وسعيد بن هارون^(٣). ومن شعرائهم أبو الحسن على بن زيد الإباضى^(٤) ومن نساك الإباضية وخطبائهم أبو حمزة الخارجى واسمه يحيى بن المختار وله خطب رائعة شهيرة.

هذه هى أهم فرق الخوارج وأشهر طوائفهم وأبرز اتجاهاتهم السياسية

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٣٦.

(٢) مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعري ج ١ ص ١٨٩ وضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٣٧.

(٣) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٨٦.

(٤) الملل والنحل القسم الأول ص ١٢٤ تخريج ابن فتح الله بدران.

وأرائهم الدينية وهناك فرق أخرى عديدة لا مجال للتعرض لها هنا^(١). وما كنت أهدف إليه من هذا العرض الموجز لأهم فرق الخوارج إنما هو التوصل إلى بيان أثر هذه الاتجاهات السياسية والآراء الدينية في أدب الخوارج أو بعبارة أخرى التوصل إلى بيان: الثورة السياسية وأثرها في أدب الخوارج، والنزعة الدينية ومظاهرها في هذا الأدب.

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من هذه الآراء التي تبدو في ظاهرها بحوثاً دينية بحتة إنما هي في حقيقة أمرها مسألة سياسية مصطبغة بالصبغة الدينية.. مثلاً: الخلاف حول الحكم على مرتكب الكبيرة الظاهر أنه خلاف حول أمر ديني بحت لكنه في الحقيقة مسألة سياسية منشؤها حكم الأحزاب السياسية بعضها على بعض للتأثير في الجماهير بدافع من أحكام الدين. وقد نادى الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة واتخذوا ذلك ذريعة للخروج على الإمام على كذلك كانوا يرمون من وراء ذلك إلى محاربة الأمويين مما جعل الدولة الأموية تحاربهم بسيف الدين وتقارعهم بحجج الإسلام^(٢).

وأمر آخر لا يفوتني أن أشير إليه وخلصته أن هناك بعض المبادئ والأصول تتفق عليها كل فرق الخوارج عموماً بحيث يمكن أن تكون هي السمات البارزة والملامح المميزة لهذا الحزب بكل طوائفه وعلى سبيل المثال فإن الخوارج يقررون أن الإيمان ليس الاعتقاد وحده ولكن العمل بأوامر الدين

(١) يرجع إليها في الملل والنحل للشهرستاني والفرق بين الفرق للبغدادي ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري.

(٢) السيادة العربية «فان فلوتن» مترجم. ص ٧٣ د. حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم.

﴿ ٥٨٠ ﴾

وتنفيذ تعاليمه جزء من الإيمان على معنى أن من اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين ولم يتصرف وفق أحكامه فهو كافر. ومرتكب الكبيرة عندهم كافر كما أن الخلافة عندهم يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين والخلافة تصح لكل مسلم ما دام لها أهلا ولو كان عبدا حبشيا وأن الخليفة إذا اختير اختيارا حرا صريحا فليس له أن يتنازل أو يحكم^(١).

والخوارج بأسرهم يثبتون إمامة أبي بكر وعمر وينكرون إمامة عثمان في وقت الأحداث التي نqm عليه من أجلها ويقولون بإمامة علي قبل أن يحكم وينكرون إمامته حين استجاب لدعوة التحكيم ويكفرون معاوية وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري^(٢). وعن هذه المبادئ المتفق عليها تهب رياح الثورة السياسية العنيفة بما تحمله من قوة مدمرة في مواجهة الباطل ومقاومة الظلم ونصرة الحق الذي يعتقدون وهذا هو الطابع المميز لحركة الخوارج.

هكذا يبدو لنا بوضوح وجلاء أننا نواجه حزبا قويا له قدرة وخطره بين الأحزاب، كما أن له أثره في تاريخ الدولة الإسلامية. وأن هذا الحزب كانت له مراحل المتمثلة في فرقه المختلفة وجماعاته المتعاقبة. ولقد كانت الأقاليم الإسلامية على بعد ما بينها ميدانا لحركة الخوارج الثورية وفرقهم المتعددة. وكان القرن الأول الهجري هو العهد الذي استوت فيه الحزبية السياسية قوية البأس بالغة الخطر وبرزت على رأسها حركة الخوارج عنيفة

(١) فجر الإسلام. أحمد أمين ص ٢٥٨ و ص ٢٥٩.

(٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ج ١ ص ١٨٩.

هادرة فى ثورية جامعة منطلقة كالإعصار يدمر كل شئ ولا يكاد يبقى على شئ.

ولقد كان لهذا الحزب الخارجى زعماؤه وخطباؤه وشعراؤه وقصاصه ومتكلموه وكان له بذلك أدبه المتميز الفريد بخصائصه، المعروف بسماته وملامحه.

ولقد سائر أدبهم السياسة التى انتهجوها، والمبادئ التى اعتنقوها والآراء التى نادوا بها فترسم خطاها ونسج على منوالها وسار على دربها وكان هو الصورة الفنية لها شعرا ونثرا مع الاختلاف فى الفن وأسلوبه ومدى تصويره وتأثيره فى عصر غلب على أدبه الطابع السياسى وذلك فى القرن الأول الهجرى لأنه عهد تكوين الدولة فى الداخل وبسط نفوذها فى الخارج ولقد نشأت الاتجاهات السياسية لدى حزب الخوارج وتبلورت وتعددت مناحيها ومسالكها ودقت مساربها ومساراتها وكان لابد للأدب أن يتناول هذه النشأة ويحتويها تعبيراً عنها ووصفا لها وتعميقاً لمفاهيمها وتحليلاً لمواقفها وإبرازاً لاتجاهاتها وتأييدا لمبادئها وتمجيذا لأبطالها وإشادة ببطولاتهم ورثاء لشهادتها ودعوة قوية للانطلاق على دربهم... يتجلى ذلك بوضوح فى الخطب والرسائل والمحاورات والمناظرات والقصص والوعظ والشعر بكل أغراضه وموضوعاته... ومن ذلك كله يتجلى أمامنا أدب متميز بخصائصه الفنية وسماته الأصيلة وهو «أدب الخوارج».



الفصل الثاني

أدب الخوارج: أغراضه وفنونه وخصائصه

للخوارج أدب متميز فريد بلامحه وخصائصه وسماته ونبضه وروحه ومظهره وجوهره وهو أدب خاص يصدر عن نزعة دينية وثورة سياسية وقد اصطبغت فيه السياسة بالصبغة الدينية فكان من ذلك أدب جديد فى شكله ومضمونه قوى فى مشاعره وأحاسيسه عظيم فى نبضه وحيويته أصيل فى عاطفته وصدق عقيدته، نبيل فى أغراضه وأهدافه...

أدب خاص قوامه طبع بدوى صاف وصراحة خشنة وبعد عن الغموض والتعقيد والالتواء، وتجنب للمداراة والتقية فى شجاعة وقوة وسمود واستبسال وثورية عنيفة وتعصب شديد للمذهب والعقيدة، واجتياح جامع، والتفاف حول المبادئ لا يعد له أى التفاف، وتغان فى سبيل الغاية لا تكاد تجد له نظيراً.

وأدب الخوارج منه ما يصدر عن أئمتهم ورؤسائهم وقادتهم يحتجون به على الخصوم ويجادلون ويحتدمون ويكشفون عن عقائدهم ومذاهبهم واتجاهاتهم ويناقشون حجج الخصوم ويفندونها حجة حجة فى ثورية وحماس وقوة عقيدة وتشدد وصلابة، ولقد عرف لرؤساء الخوارج فى هذا المجال قوة بيان وفصاحة لسان وبراعة أداء وبلاغة قول وروائع أجوبة وردود.

ونوع آخر من أدب الخوارج فيه تصوير النضال ومواجهة الشدائد والصعاب واقتحام الأهوال وبذل النفوس والأرواح، والرسوخ والثبات على المبدأ والعقيدة بلا موارد أو مداراة أو تقية ولكنها ثورية عنيفة غاضبة عاصفة جامحة لا تبقى ولا تذر.

ونتيجة لذلك كان أدبهم موجهها كله لخدمة أهدافهم ومبادئهم وتحريك العواطف والمشاعر نحوها وقيادة الثورة العاتية في كل اتجاه وفي أى مكان وفي كل وقت. كان بحق أدب الشجاعة والقوة، أدب الثورة والعنف.. أدب الحرب ولم يكن أبداً أدب تكسب واحتراف أو أدب رياء ومداهنة أو أدب تشدق ومفاخرة، كما كان أدب طبع وفطرة ولم يكن أدب صنعة وبريق وبهرج، قد لا تجد فيه فحولة غالبية ولكنك من غير شك واجد فيه الأصالة والصدق وبراعة المزج بين العقيدة الدينية والثورة السياسية...

لقد كان أدباً تكاملت فيه عناصر الأدب ومقوماته: عقيدة راسخة لا تززعها الأحداث، وتحمس شديد لها تهون معه التضحيات ويسهل بذل الأموال والنفوس والأرواح، وقوة واقتدار. وصراحة خشنة لا تخشى بأساً ولا ترهب أحداً قد اتخذت سمتها وهيئتها من وعورة الصحراء وخشونة الحياة فيها، وشعور بالأخوة الرحبة والمساواة المطلقة يعطى لكل فرد قدره وحقه، ويحفظ له كرامته وكيانه، فالناس جميعاً سواء أكرمهم عند الله أتقاهم والحاكم لا يختار إلا بمقياس الصلاح والتقوى والقدرة على تصريف الأمور وعدم التهاون أو التفريط في الحقوق.. فإن جار الحاكم وغير وبدل فلا طاعة له على الناس، وإنما هي الثورة الجارفة التى تقتلعه من جذوره وتعصف

بحكمه... مساواة حقه تتمثل فيها أخوة صافية مطلقة استمدت من البداية طلائعها ورحابة مداها وامتداد آفاقها ودعمتها شريعة الله ممثلة في خير دين وهو الإسلام.

إلى جوار ذلك كله نرى أداة طيعة للبيان، واستعداداً فطرياً موهوباً للتعبير بالقول واللسان، وفصاحة أصيلة أصالة الخلال البدوية المركوزة في الطباع فكثرة الخوارج من الأزديمانية ومن تميم المضربية مع من انضم إليهم من الموالي^(١) بتأثير النزعة الديمقراطية المتمثلة في مذهب المساواة بين المسلمين وأن الخلافة لأكفأ الرجال دون مراعاة جنس أو طبقة وقد عبر شاعرهم عمران بن حطان عن هذا المعنى في قوله:

فنحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر
والمبرد يعلق على هذا بقوله^(٢): يقول انقطعت الولاية إلا ولاية
الإسلام لأن ولاية الإسلام قد قاربت بين الغرباء وقال الله عز وجل: «إنما
المؤمنون إخوة» وقال عز وجل «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح».

وهذا الطابع البدوي الأصيل قد ظل محتفظاً بخصائصه لم تفسده الحضارة المترفة ولا ظروف الحياة الجديدة ونزعاتها الفاسدة وبذلك اكتسب أدبهم هذا الصفاء والنقاء وهذه الصراحة والجرأة وهذا الرسوخ والثبات في قوة عقيدة وسلامة طبع وأعجب صلابته. وقد كان لنشأتهم في ظل الإسلام

(١) تاريخ الشعر السياسي: أحمد الشايب ص ١٤٠ - الخوارج في الإسلام: عمر أبو النصر ص ١٤، ص ٢٠، ص ٢١.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١٥.

وتعاليمه وبلاغة القرآن وإعجازه أثر بالغ في صقل هذا الجيل الذي خرج بمذهب جديد تمثلت فيه النزعة الدينية والثورة السياسية وكان أدبهم تبعاً لذلك أدباً إسلامياً جديداً قوياً في منهجه وأسلوبه قوياً في معانيه وأفكاره فهو أدب القوة: قوة العقيدة وقوة التعبير عنها والتضحية من أجلها والاستماتة في سبيلها. هو أدب الغضبة والثورة: الغضبة للحق الذي يعتقدون والثورة ضد كل من يخالفون فهم متعصبون للحق الذي آمنوا به متعصبون لكل من يمثله ويمثل لأمره ويذعن له ويخضع لتعاليمه ثائرون على كل من يخالفه ويحيد عنه ويعرض عن قوانينه.

وهذا قطري بن الفجاءة يعبر عن هذه المعاني فيقول^(١):

لا يركنن أحد إلى الإحجام	يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أرانى للسيوف دريئة	من عن يمينى تارة وأمامى
متى خضبت بما تحدر من دمي	أكناف سرجى أو عنان لجامى
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب	جدع البصيرة قارح الأقسام

فهو يدعو رفاقه إلى الإقدام وترك الوجل ويجعل من نفسه مثلاً أعلى فلطالما أقدم غير هيب ولا وجل.

وشاعرهم حيان بن ظبيان يدعو إلى الثأر ويحض على الجهاد في سبيل الله والمبدأ فيقول^(٢):

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٣٠ وما بعدها - دريئة: عرضة، أكناف: جوانب.

(٢) تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ص ١٢٩ وحيان بن ظبيان من زعماء الخوارج حث أتباعه على المسير إلى الكوفة بعد مقتل علي.

خليلي ما بي من عزاء ولا صبر ولا إربة بعد المصابين بالنهر
سوى نهضات في كتائب جمّة إلى الله ما تدعو وفي الله ما تفرى

ومثله معاذ بن جوين الخارجي يدعو إلى الخروج على البغاة المفسدين
ويقول^(١):

الا أيها الشارون قد حان لامرئ شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة وكل امرئ منكم يُصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها إقامتكم للذبح رأيا مضللا

هو أدب القوة حتى في رثائه وبكائه فإنما هو يرثى تدعيما للجهاد
وإشادة بالاستشهاد ودعوة إلى بذل مزيد من الدم ويبكى ليروى عطش النفوس
الظمأى للقتال ويحرك فيها معاني البطولة والمجد والخلود وفي ذلك يقول
شاعرهم عمران بن حطان وقد هانت عليه الحياة بعد موت أبي بلال مرداس
أحد زعمائهم:

لقد زاد الحياة إلى بغضا وحببا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى لها والله رب البيت قال^(٢)

حقا.. هو أدب الجد الذى لا يعرف هزلا ولا لهوا ولا يعرف خلاعة
أو مجونا إنما هو أدب الجهاد والنضال والمقاومة والتربية القوية الصعبة التى

(١) المرجع السابق ص ١٣٠ ومعاذ بن جوين من رفاق حيان والمستورد بن علفة.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٠٨. «قال: كاره باغض»

تصنع الرجال الأقوياء وتتشتتهم على المثل الأعلى الذى يرتضون هو أدب الفطرة السليمة والطبع المستقيم أدب عربى أصيل بدوى عريق يسرى فيه روح إسلامى جديد أكسبه جدة فى موضوعه وفى أفكاره ومعانيه وفى ألفاظه وأساليبه وفى أهدافه وغاياته وبعده عن تقليد القدامى والمعاصرين فى المقدمة الغزلية والتخييل وتعدد الفنون فى القصيدة الواحدة وتجنبه للتفلسف والتعقيد وترفعه عن التأثر بالأجنبى الدخيل..

فأدب الخوارج أدب مذهب جديد تغذى بالعقيدة الإسلامية وتأثر بالاتجاهات السياسية فكانت آراؤه وأفكاره ومعانيه صدى لهذين التيارين: الدينى والسياسى ودعوة قوية للغاية التى اعتنقوها وآمنوا بها فى سبيل الحكم الصالح والنظام السليم ومقاومة الباطل والقضاء على الضلال والدعوة إلى الإخلاص والفداء واعتبار رفقة الكفاح وزمالة الحزب فوق كل اعتبار...

هذا هو الطرماح بن حكيم يبغى الجهاد ويتوق إلى الاستشهاد ويصور

كفاح إخوانه الشراة الذين باعوا أنفسهم رخيصة فى سبيل عقيدتهم:

وإنى لمقتصاد جوادى وقاذف	به وبنفسى العام إحدى المقاذف
لأكسب مالا أو أوول إلى غنى	من الله يكفينى عدات الخلائف
فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن	على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن قبرى بطن نسر مقلبه	بجو السماء فى نسور عواكف
وأمسى شهيدا ثاويا فى عصابة	يصابون فى فج من الأرض جانف
فوارس من شيبان ألف بينهم	تقى الله نزالون عند التراحف

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما فى المصاحف^(١)

ومن هنا كانت الوحدة الفنية التى نراها بوضوح فى أدب الخوارج إذ تتحول فنون الأدب عندهم إلى صورة فنية تلائم مذهبهم الخارجى وتتمشى مع عقائدهم ومبادئهم. كما أن الأغراض والفنون الشعرية قد تحولت لخدمة أهداف الحزب ومبادئه والدعوة إلى غاياته والالتزام بمنهجه وأساليبه ولم يشغل الأدباء شئ سوى هذه المبادئ والعقائد فكانوا بحق أوفياء للمذهب وكان أدبهم انعكاسا صادقا وأميناً لهذا الوفاء فلم يتكسبوا بالشعر ولم يرتزقوا بالأدب بل تحولت الجهود كلها لخدمة العقيدة السياسية وأصبح المدح والهجاء والرثاء والنسيب والوصف فنونا تعكس الثورة السياسية والنزعة الدينية لطائفة الخوارج وبذلك تلاشى كل شئ عندهم وتحدد فى المذهب والعقيدة فلا تعصب لجنس أو لقبيلة ولا ولاء إلا للحزب والمذهب. وبهذا المقياس نرى الفخر والمدح عندهم يتوجهان إلى الجماعة والحزب والتغنى بالبطولة والإشادة بعظمة القيادة كما نرى الرثاء يختص بالشهداء الأبطال الذين خاضوا غمار المعارك ضد المخالفين وضحوا بأرواحهم فى سبيل الغاية.

والهجاء نراه ينصب على رأس كل مخالف مهما كان قدره بلا موارد ولا تقيّة وقد نرى بعض الخوارج يتعرضون بالهجاء والذم لبعض ذوى

(١) الديوان ص ١٥٥ والأغاني: ج ١٠ ص ١٥٢، ص ١٥٣ وبعده قوله:
فأقتل قعصا ثم يرمى بأعظمى كضغت الخلايين الرياح العواصف
ويصبح لحمى بين طير مقلبه دوين السماء فى نسور عواكف
يرجو أن يقتل ضربا بالسيف فى مكانه وأن تلقى أعظمه كقبضة الكلا تذررها الرياح
أو تلتهمه طير السماء كإخوان له من شيبان والصفريّة منهم.

﴿ ٥٩٠ ﴾

قربانهم فى الأحزاب الأخرى أو من القعدة السلبين.
والنسيب عندهم ينتهى إلى فخر بالبطولة وتصميم على الجهاد وثبات على
المبدأ وهذا شاعر الأزارقة وزعيمهم قطرى بن الفجاءة فى حديث له عن يوم
«دولاب» بين الخوارج وأهل البصرة يقول^(١):

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد	وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفريات البيض لم ير مثلها	شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم أطم وجهها	على نائبات الدهر جد لثيم
ولو شهدتى يوم دولاب أبصرت	طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها	وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الأزد فى حومة الوغى	تعوم وظلنا فى الجلاذ نعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا	يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريما على فتى	أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطننا	له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا	تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

☆☆☆☆☆

كذلك كان لنساء الخوارج أدب قوى تجردت فيه المرأة من طبيعة
الأنوثة وسرى فيها روح قوى من اليقين والإيمان وعظمة العقيدة وجلال
الإخلاص وروعة الإقدام ونبل التضحية فقد شارك الرجال وباشرن الحرب

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٨٢.

وصرعن الأبطال وتخليين من أجل ذلك عن متعة الحياة وزينتها^(١) وكن بحق
وقود الثورة وشعلتها في اكتمال شخصية وحدة خاطر وقوة جنان وفصاحة
لسان وبراعة حوار وعذوبة منطق وبيان.

هذه «أم حكيم» الخارجية^(٢) رفضت متعة الحياة وقد وهبها الله نعمة
الجمال وأبت إلا الجهاد والحرص على الاستشهاد حتى قتلت بين يدي المهلب
ابن أبي صفرة وكانت في معاركها ترتجز:

أحمل رأساً قد سنمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنى ثقله

وهذه أيضاً «الفارعة» الخارجية ترثي أخاها الوليد بن طريف الذي
خرج بالجزيرة على عهد الرشيد فتقول:

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم معاودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم مقاما على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهة من السرد في خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لا قح وسمر القنا ينكزنها بأنوف

ثم تقول في ثبات:

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفاً فإننى أرى الموت وقاعاً بكل شريف^(٣)

☆☆☆☆☆

(١) أدب الخوارج لمحمد جمعه حسنين رسالة مخطوطة بكلية اللغة العربية ص ٥٩.
(٢) من أدب الحركات الإسلامية د. بدير متولى حميد ص ١٣٤ هامش وفجر الإسلام
ص ٢٦٤. نقلاً عن الأغاني (ساسى) ج ٦ ص ٦.
(٣) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٤٦.

هكذا صورة فنية متماثلة بما يسرى فيها من روح قوى وبما يسيطر عليها من وجدان ثائر وبما يتحكم فيها من اتجاه ثورى ومذهب دينى شمل الرجال والنساء، الشيوخ والشباب، العرب منهم والموالى... ولعل فى كل ذلك الذى قدمت ما يفسر ما يغلب على شعر الخوارج من مقطوعات تعبر عن مشاعرهم العديدة وأحاسيسهم المختلفة ومواقفهم الكثيرة: شعر مقطوعات يستمد نهجه من واقع حياة الخوارج فى نضالهم العنيف وتحركاتهم المتوالية وضرباتهم الخاطفة المتتابة ولا تفسير لذلك إلا مع افتراض النقص والضياع بمعنى أن القصائد لم ترو كاملة فى عدد أبياتها، وإما أن نقبل حقيقة أن شعرهم فى أغلبه مقطوعات قصيرة من وحى الحياة القلقة المشغولة بالكفاح والصراع فى سبيل المبدأ والغاية.. ومن غير الأغلب قد نرى بعض المطولات مثل قصيدة «عمرو بن الحصين» فى يوم «قديد» سنة ثلاثين ومائة هجرية. وقصيدة أخرى له أيضاً فى رثاء أبى حمزة الخارجى وعبد الله بن يحيى الكندى طالب الحق، وهما قصيدتان تمثلان حياة الخوارج وسلوكهم ونضالهم وجهادهم واستبسالهم كما أنهما تصوران المذهب الخارجى أقوى تصوير وأصدق وأروع^(١). وهناك أيضاً قصيدة طويلة لشيبيل بن عزرة الضبعى قال عنها كارل بروكلمان^(٢): إنها كثيرة الألفاظ الغريبة بحيث يمكن أن تغنى عن معجم لغوى.

وتعتبر الواقعية من الملامح المميزة لشعر الخوارج فهم يتخذون من الحياة وواقعها وظروفها ومنهجهم فيها والصراع الدائر بين الطوائف

(١) القصيدتان فى الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٢، ص ١١١.
 (٢) تاريخ الأدب العربى ترجمة عبد الحليم النجار ص ٢٣٤.

﴿ ٥٩٣ ﴾

والأحزاب من خلال رواهم وأفكارهم مادة خصبة لهذا الأدب فهم يلتزمون
ببيئة الصراع التي تقع تحت أسماعهم وأبصارهم وحواسهم وصفا لها وتجليه
لمظاهرها وكشفا لما يحيط بها واستيعابا لكل ما توارد وتتابع على أرضها من
أحداث. وهم في تعبيرهم وتصويرهم يلتزمون بالدقة والصراحة والاعتماد
على استكمال جوانب الصورة باستيعاب عناصرها وجزئياتها.

ولعل ما يصور ذلك خير تصوير هذه الأبيات التي يعبر فيها عمران
ابن حطان عن لوعته وأساه لفقد رفيق الكفاح أبي بلال مرداس في لوحة فنية
تفيض إخلاصا ووفاء وتعبر عن أدق المشاعر الإنسانية:

يا عين بكى لمرداس ومصرعه	يا رب مرداس اجعلنى كمرداس
تركتنى هائما أبكى لمرزنتى	فى منزل موحش من بعد ايناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلا	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس ^(١)

وحين خاطب قطرى بن الفجاءة أبا خالد القنانى وكان من قعد

الخوارج بقوله:

أبا خالد يا انفر فاست بخالد	وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أترعم أن الخارجى على الهدى	وأنت مقيم بين لص وجاحد

كتب إليه أبو خالد:

لقد زاد الحياة إلى حبا	بناتى إنهن من الضعاف
------------------------	----------------------

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٠٨.

أحاذر أن يرين الفقر بعدى وأن يشربن رنقا بعد صاف
 وأن يعرين إن كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف
 ولولا ذلك قد سومت مهري وفى الرحمن للضعفاء كاف
 أبانا من لنا إن غبت عنا وصار الحى بعدك فى اختلاف^(١)

ومن السمات المميزة لشعر الخوارج السرعة الفنية بما فيها من حيوية وتدفق ونبض متتابع قوى وعنيف حتى لكان شعرهم تعبير حى عن عواطفهم المتوقدة ومشاعرهم المتدفقة وثورتهم الجامحة وصراعهم المتتابع الذى لا ينى ولا يتوقف.

ومن مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطوعات والقصائد القصيرة وتحررهم غالباً من الديباجة الغزلية وتعدد الفنون فى القصيدة الواحدة كذلك من مظاهر هذه السرعة قلة الصنعة الفنية فى شعرهم والاعتماد على الطبيعة المتدفقة بالفطرة والإلهام فليس من طبيعة الشاعر الخارجى التأنى والروية والتمهل فى استكمال مقومات عمله الفنى فلم يكن الشعر عندهم حرفة تقصد لذاتها ويتفرغ صاحبها لتجويدها والوصول بها إلى الغاية المثلى وإنما يأتى أدبهم هكذا طيعاً فى صدق وبلا تصنع ولا تكلف. ومما تجدر الإشارة إليه فى مجال الخصائص الفنية لشعر الخوارج ظاهرة التحلل من الشخصية القبلية وظهور الوضوح الفنى لشخصية الشاعر الخارجى المرتبطة بمذهبه وحزبه وإخوانه رفقاء الكفاح والسلاح فنحن نجد شعراء الخوارج وقد فنيت عصبياتهم القبلية والجنسية فى عقيدتهم المذهبية فكان بنو تميم والأزد يقاتلون ويهجون

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٠٧، ١٠٨.

بنى قرابتهم فى جيوش الحكومة الأموية والشاعر الخارجى عن الموالى ينسى جنسيته وشعوبيته فى سبيل مذهب الخارجى فلم نر أثر الجنسية فى أصل عقيدته ووجهة نظره وإن جاز ظهورها فى الفن الشعرى من حيث الصياغة^(١).

يصور هذا المعنى أصدق تصوير قول عمران بن حطان مشيدا بقوم من الأزدي نزل فيهم متخفياً فلم يسألوه عن أصله وقبيلته^(٢):

فأصبحت فيهم أمنا لا كمعشر أتوني فقالوا من ربيعة أو مضر
أم الحى قحطان فتلكم سفاهة كما قال لى روح وصاحبه زفر
وما منهما إلا يسر بنسبة تقربنى منه وإن كان ذانفر
فحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر

ولست أتفق مع الدكتور على حسنى الخربوطلى فى قوله: «وتتجلى النزعة القبلية فى مبادئ الخوارج السياسية فقد ملوا الخضوع للسلطان والحكم المركزى... إلى آخر ما ذكره^(٣)».

فلم تكن للخوارج نزعة عصبية قبلية بل على العكس من ذلك فهم يرون أن المؤمنين إخوة وأن أكرمهم عند الله أتقاهم لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح وهم لذلك يرون الخلافة حقا لكل مسلم تتوافر فيه الكفاءة والعدل عربياً كان أو غير عربى.

(١) تاريخ الشعر السياسى - أحمد الشايب ص ١٤٣.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١١.

(٣) أعلام العرب - المختار التقى ص ٢٦١.

وقد ناقض الدكتور نفسه إذ عاد يقول عن الخوارج^(١):

«ووضعوا برنامجهم على أساس العودة إلى مبادئ الإسلام الأولى التي تحض على المساواة والإخاء والتي انعدم وجودها وقت ظهور الخوارج ولا غرو فقد انضم إليهم المسلمون الأتقياء رغبة في الإصلاح وراعوا نصوص القرآن ودعوا إلى التمسك بالوحدة الإجتماعية والإخاء الإسلامي اللذين تميزت بهما الجماعة الإسلامية» كذلك مما أشير إليه من هذه الخصائص الفنية بروز عنصر الحكاية والنزعة القصصية في أشعار الخوارج فلقد كانت حياتهم الحافلة بالأحداث المثيرة مادة خصبة لشعرهم وأدبهم عموماً فقد سجلوا فيه أحداث هذه الحياة وقصص هذه البطولات والوقائع.

لنستمع إلى عيسى بن فاتك الشاعر الخارجي وهو يسجل بطولة نادرة تمكن فيها أربعون رجلاً من الخوارج أن يلحقوا الهزيمة بجيش ابن زياد وقوامه ألفا رجل وعلى رأسهم أسلم بن زرعة يقول^(٢):

فلما أصبحوا صلوا وقاموا	إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم	فظل ذوو الجعائل يقتلوننا
بقية يومهم حتى أتاهم	سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم	بأن القوم ولوا هاربيننا
ألفا مؤمن فيما زعمتم	ويهزمهم بأسك أربعوننا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنوننا
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة ينصروننا

(١) المرجع السابق ص ٢٦٢.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٧، ١٥٨.

ولنستمع إلى شاعرهم عمرو بن الحصين الكوفى مولى بنى تميم يذكر
وقعة «قديد» وأمر مكة ودخلوهم إياها فيقول^(١):

ما بال همك ليس عنك بعازب	يمرى سوابق دمعك المتساكب
وتبيت تكاتلئ النجوم بمقللة	عبرى تسر بكل نجم دائب
حذر المنية أن تجئ بداهة	لم أقض من تبع الشراة مآربى
فأقود فيهم للعدا شنج النسا	عبل الشوى أسوان ضمير الحالب
متحدرا كالسيد أخلص لونه	ماء الحسيك مع الجلال اللاتب
أرمى به من جمع قومي معشراً	بورا إلى جبرية ومعاييب
فى فتية صبر ألفهموا به	لف القداح يد المفيض الضارب
فندور نحن وهم وفيما بيننا	كأس المنون تقول هل من شارب
فنظل نسقيهم ونشرب من قنا	سمر ومرهفة النصول قواضب
بيننا كذلك نحن جالت طعنة	نجلاء بين رها وبين ترائب
جوفاء منهرة مرى تامورها	ظبتنا سنان كالشهاب الثاقب
أهوى لهاشق الشمال كأننى	خفض لقى تحت العجاج العاصب

☆☆☆☆☆

ولم يكن أدب الخوارج شعرا فقط بل كان شعرا وخطابة ووعظا
وقصصا ونوادير وحكما ورسائل ومحاورات ومناظرات فلقد حملوا لواء
الثورة وهبوا كالعاصفة الهوجاء لا تبقى ولا تذر وأصبحت ديار المسلمين من
وجهة نظرهم ديار حرب والجهاد واجب والخلافة يليها من يستحقها بمشورة
المسلمين ولو لم يكن قرشيا. ولم تكن وسيلتهم لتحقيق ذلك كله تعتمد على
السيف فقط ولم يكن السيف وحده وسيلة الجهاد عندهم بل كان للخطابة

(١) الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ج ٢٠ ص ١٠٢ وما بعدها.

والخطباء دور كبير وأثر فعال فهي عمل سياسى خطير من غرضه التأثير فى الجماهير وإثارتها ودفعها فى نفس التيار وتحطيم معنويات الأطراف الأخرى، لذا فقد كانت ثورة الخوارج تمتزج بالروح الدينى لما له من أثر عميق فى النفوس وقدسيتها بالغة فى القلوب ولما للدين من روابط وطيدة بالخلافة والإمامة وتصريف شئون الأمة وتطبيق مبادئ الشريعة.

ولقد كان الخوارج يصفون بنى أمية بجورهم فى الأحكام وتعطيلهم حدود الله وانحرافهم عن القصد وضلالهم عن سواء السبيل وهم فى ذلك يستهدفون القضاء على ما لهم من نفوذ وسلطان بحكم الدين وبما أنهم خالفوا الدين فلا طاعة لهم ولا عهد ولا ذمة والثورة عليهم واجبة ورفع راية العصيان وشق عصا الطاعة ضرورة يحتمها الدين ويطالب بها الشرع ومن لم يفعل فقد غوى وعصى وشارك فى الضلال وحققت عليه لعنة الله... تلك ثورة عاتية بغير شك ثورة سياسية مغلقة بأغلفة دينية قوامها ورع وتقوى وخشية لله ورغبة فى الموت وإعراض عن متع الحياة والجهاد فى الله حق الجهاد. ولذا فإننا لا نعجب حين نرى خطبهم السياسية ممتزجة بالوعظ الدينى الذى يصور عمق تدينهم وتمسكهم بالعروة الوثقى، ومقاومة الباطل حيثما كان.. لقد كان الاتجاه الدينى وسيلة فعالة للتأثير فى الجماهير وإشعال الحماس فى نفوس المناضلين أتباع الحزب الخارج. كما كان أيضاً وسيلة فعالة لتحقيق أغراض سياسية^(١)، لذا فإن الخوارج كانوا يمزجون خطابتهم السياسية بالدين وقد يجعلونها دينية خالصة كما نرى فى موعظة قطرى بن الفجاءة التى يقول فيها^(٢):

(١) الخطابة فى صدر الإسلام د. محمد طاهر درويش ج ١ ص ١٢١.

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٦ عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٥٠.

أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراققت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال وتزينت بالغرور لا تدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها، غرارة ضرارة خوانة غدارة حائلة زائلة نافذة بائدة أكالة غوالة بدالة نقالة لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله: «كفاء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا» مع أن امرأ لم يكن منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرائها بطنًا إلا منحته من ضرائها ظهرا ، ولم تطله غيبة رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء وحرى إذا أضحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متكررة، وإن جانب منها اعذو ذب واحلولى أمر عليه منها جانب وأوبى، وإن آتت امرأ من غضارتها ورفاهتها نعمًا أرهقته من نوائبها نقما، ولم يمس امرؤ منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف، غرارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير فى شئ من زادها إلا التقوى».

هكذا يشيع الروح الدينى وهكذا نكاد نحس روح العظات البالغات للإمام على رضى الله عنه، بل قد رويت هذه الخطبة فى بعض المؤلفات^(١) منسوبة للإمام على، وأيا كان الأمر فإنها ذات دلالة على تأثرهم بأدب الإمام على وخاصة الرعيل الأول منهم فقد خالطوه وعاشروه وكانوا جندا معه يقاتلون فى صفوفه.

وهذه خطبة أخرى لأبى حمزة الخارجى الشارى يقول فيها^(٢):

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢١ والعقد الفريد ج ٤ ص ١٤٨.

﴿ ٦٠٠ ﴾

«أما بعد: فإنك ناشئ فتية، وقائد ضلالة، قد طال جنومها واشتدت غمومها، وتلونت مصايد عدو الله فيها، وقد نصب الشرك لأهل الغفلة عما في عواقبها فلن يهد عمودها ولن ينزع أوتادها إلا الذى بيده ملك الأشياء وهو الله الرحمن الرحيم، ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيروا فى ظلمتها، ولم يشايعوا أهلها على شبهتها مصابيح النور فى أفواههم تزهو، وأفواههم بحجج الكتاب تتطق، ركبوا نهج السبيل، وقاموا على العلم الأعظم، فهم خصماء الشيطان الرجيم، وبهم يصلح الله البلاد، ويدفع عن العباد فطوبى لهم وللمستصبحين بنورهم أسأل الله أن يجعلنا منهم.

وبالدراسة التحليلية لخطب الخوارج نرى أنها تعتمد أساساً على العاطفة القوية وصدق العقيدة وشدة الانفعال وعمق الإيمان بالمبدأ. كما أنها تعتمد على الإثارة وبراعة العرض وقوة الحجة وروعة البيان والعناية بالأسلوب ودقة اختيار الألفاظ الجزلة القوية مع جودة الرصف وإحكام البناء والاهتمام بالإيقاع الصوتى وتناسق النغم، والاعتماد على أنماط من التتابع والتقابل والترادف لإحداث مزيد من التأثير وإبراز للمعاني فى صور مختلفة.

وخطبهم عموماً يشيع فيها الروح القرآنى فهى تستمد من معانيه وتهل من فيضه وتزدان بآياته وتتحدى ببيانه وتسير فى اتجاهه.

﴿ ٦٠١ ﴾

وقد كان هناك قصاص ووعاظ متخصصون يقصون على الناس الأقسايم ويعظونهم بالعظات البالغات التي تستهدف بالدرجة الأولى تحقيق الثورة السياسية والدعوة إلى الجهاد، وحمل لواء الكفاح والنضال في مواجهة الحكام والطوائف المعادية، والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف والمنكر عند الخوارج له مدلول سياسي هام يتسق مع مبادئهم ونظرياتهم في الإمامة والحكم والطاعة^(١).

وقد نما القصاص وازدهر لأنه يتفق وميول العامة مما أدى إلى ذبوعه وانتشاره وامتداد آثاره، واتخذته الأحزاب السياسية سلاحاً بتاراً تشرعه في وجه الخصوم ولو كان ذلك كذباً واختلاقاً^(٢).

وقد اتخذ القصاص أداة سياسية ودينية معا وكانت عبارته تشبه الأسلوب الخطابي الوعظي.

ومن أمثله ما قاله «صالح بن مسرح الخارجي التميمي في أصحابه وكان يخلط قصصه بالدعوة إلى الجهاد وتحبيذ الاستشهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣). يقول^(٤):

«الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم

(١) الخوارج والشيعة تأليف فلهوزن وترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٢٩ وما بعدها.

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٥٩.

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي د. شوقي ضيف ص ٧٥.

(٤) تاريخ الشعر السياسي ص ١٧ تاريخ الطبري ج ٢ ق ٢ ص ٨٨٢.

﴿ ٦٠٢ ﴾

الذين كفروا بربهم يعدلون. اللهم إنا لا نعدل بك، ولا نحفد إلا إليك ولا نعبد إلا إياك، لك الخلق والأمر، ومنك النفع والضرر، وإليك المصير ونشهد أن محمدا عبدك الذي اصطفيته، ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك، ونصيحة عبادك حتى قبضه الله. ثم ولى الأمر من بعده النقي الصديق على الرضى من المسلمين فاقتدى بهديه واستن بسنته حتى لحق بالله، رحمه الله. واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية فعمل بكتاب الله، وأحيا سنة رسول الله، ولم يحنق فى الحق على جرتة ولم يخف فى الله لومة لائم حتى لحق بالله - رحمة الله عليه.

وولى المسلمين من بعده عثمان فاستأثر بالفئ، وعطل الحدود، وجار فى الحكم، واستذل المؤمن، وعزز المجرم فسار إليه المسلمون فقتلوه....»



وطبيعى أن تروج المناظرات والمحاورات ووسائل الحجاج والجدال مع الشعر والخطابة والوعظ والقصص فلقد اشتعلت المحاورات والمجادلات بين الفرق السياسية المختلفة وبين الخوارج بل وبين الطوائف المختلفة من الخوارج أنفسهم.. كانت هناك محاورات قوية بين ابن عباس والخوارج وبينهم وبين الإمام على وبينهم وبين ابن الزبير وبينهم وبين الشيعة ومن يميلون إلى طاعة أولى الأمر عن اقتناع أو عن تقية ومداراة وبينهم وبين الفرق الأخرى وما تمثله من مبادئ ونظريات واتجاهات: كل يدافع عن رأيه ويحتج له ويبرهن ويقدم الأدلة ويستظهر بالقرآن والسنة فى مجادلات عديدة لإقناع الخصوم وكسبهم إلى جانبهم بالبينة والبرهان والبلاغة والبيان.

﴿ ٦٠٣ ﴾

وهذه محاوره لهم مع ابن الزبير أوردها المبرد: ^(١) قال: « دخلوا على ابن الزبير وهو متبذل وأصحابه متفرقون عنه فقالوا: إنا جنناك لتخبرنا رأيك فإن كنت على الصواب بايعناك، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق. ما تقول في الشيخين؟ قال خيرا. قالوا: فما تقول في عثمان الذى أحمى الحمى، وأوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئا وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبى معيط رقاب الناس، وأثرهم بفق المسلمين؟ وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم؟ وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبه أن يقرن فى بيوتهن؟ لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة. فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفة عند الله، والنصر على أدينا، ونسأل الله لك التوفيق، وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول، وتصويب أبيك وصاحبه، والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا».

ورد عليهم ابن الزبير بقوله «إن الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا القول فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما فى فرعون.. فقولا له قولا لنا لعله يتذكر أو يخشى» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. «لاتؤذوا الأحياء بسبب الموتى» فنهى عن سب أبى جهل من أجل «عكرمة» ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول،

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٧٢.

﴿ ٦٠٤ ﴾

والمقيم على الشرك، والجاد في المحاربة، والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها، وكفى بالشرك ذنباً وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميت فيه طلحة وأبي أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كانوا منهم دخلاً في غمار الناس، وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسبب أبي وصاحبه، وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبيه.. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً وقال جل ثناؤه.. «وقولوا للناس حسناً» وهذا الذي دعوتهم إليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله...^(١).

وهذه المحاورات والمناظرات تكشف عن طاقة بلاغية ومقدرة خطابية وبدئية وارتجال، وقد كانت من أبرز الظواهر الأدبية التي لازمت الخلاف السياسي والمذهبي بين الأحزاب.

وكانت حركة الخوارج باباً للخلافات المذهبية، والنضال حول الاتجاهات العقائدية وسبيلاً إلى كثير من الخطابة والمناظرة بين أربابها ومنبعا لرائع من القول وبارع من الحجة سله المتخاصمون وانتضاه المتجادلون.



(١) خالف ابن الزبير الخوارج في آرائهم فانصرفوا عنه الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٧٣.

﴿ ٦٠٥ ﴾

كذلك كان للرسائل المتبادلة أثرها وخطرها فهي وسيلة تعبير أخرى بالقلم لا باللسان، وكانت لهذه الرسائل قيمة أدبية بالغة بما فيها من روائع المعاني وفصاحة الأسلوب وبراعة الحجة وقوة البيان والرسائل السياسية عموماً تمتاز بما فيها من قوة وبراعة أداء وإقناع بالحجة والمنطق كما أنها تعتمد على التأثير في الوجدان والشعور بالكلمة المعبرة واللفظة الموحية والأساليب الرائعة والتصوير القوى والتعبير المثير والاستشهاد بالآية القرآنية والحديث الشريف والحكمة البالغة في صراحة ووضوح وقوة تميز بها أدب الخوارج عموماً.

لقد كانت هناك رسائل متبادلة بين زعماء الخوارج وخصومهم أو بين بعضهم وبعض وكانت هذه الرسائل تفيض حماسة وقوة وتتدفق فصاحة وبياناً وتلتهب ثورة وحمية بالإضافة إلى ما تمتاز به من الخصائص الفنية التي أشرت إليها ومن خير ما أستشهد به رسالتان متبادلتان بين نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق وهما من زعماء الخوارج:

كتب نجدة بن عامر إلى نافع بن الأزرق يلومه في بعض آرائه المتطرفة:
«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البر لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا ترى معونة ظالم، كذلك كنت أنت وأصحابك، أما تذكر قولك.. لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيتيه ما توليت أمر رجلين من المسلمين، فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه، وأصبت من الحق فسه، وركبت مره تجرد لك الشيطان، ولم

﴿ ٦٠٦ ﴾

يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك فاستمالك واستهواك واستخواك وأغواك فغويت فأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم فقال جل ثناؤه وقوله الحق ووعد الصديق «ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله.. ثم سماهم أحسن الأسماء فقال.. ما على المحسنين من سييل» ثم استحلت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم، وقال الله عز ذكره «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وقال في القعد خيراً، وفضل الله من جاهد عليهم، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه، أو ما سمعت قوله عز وجل.. لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر فجعلهم الله من المؤمنين، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ورأيت ألا تؤدي الأمانة إلى من خالفك والله يأمر أن تؤدي الأمانات إلى أهلها، فاتق الله وانظر لنفسك، واتق يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإن الله عز ذكره بالمرصاد، وحكمه العدل وقوله الفصل. والسلام»^(١) ورد عليه نافع بن الأزرق في كتاب بعث به إلى نجدة بقوله^(٢):

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد أتاني كتابك تعظني فيه وتذكرني وتتصح لي وتزجرني، وتصف ما كنت عليه من الحق، وما كنت أوثره من الصواب وأنا أسأل الله جل وعز أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وعبت على ما دنت به من إكفار القعد وقتل الأطفال

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٧٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٧.

﴿ ٦٠٧ ﴾

واستحلال الأمانة، فسأفسر لك لم ذلك إن شاء الله؟: أما هؤلاء القعد فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين، لا يجدون إلى التهرب سبيلا، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا وهؤلاء قد فقهوا في الدين وقرأوا القرآن، والطريق لهم نهج واضح، وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم إذ قالوا كنا مستضعفين في الأرض فقبل لهم.. ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» وقال: «فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله» وقال: «وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم» فخير بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله وقال سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم فانظر إلى أسمائهم وسماتهم. وأما أمر الأطفال فإن نبي الله نوحا عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة منى ومنك فقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا فسامهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يولدوا فكيف كان ذلك في قوم نوح ولا نكون نقوله في قومنا، والله يقول «أكفاركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر» وهؤلاء كمشركى العرب لا نقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فئ للمسلمين، فاتق الله وراجع نفسك فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ولن يسعك خذلاتنا والقعود عنا وترك ما نهجناه لك من طريققتنا ومقالتنا، والسلام على من أقر بالحق وعمل به».

﴿ ٦٠٨ ﴾

ومما تجدر الإشارة إليه أن الارتباط وثيق بين الشعر والخطابة والكتابة: فالخطابة والشعر يعتمدان على اللغة الدقيقة الواضحة والألفاظ الموحية والكلمات المعبرة كما أن للخطابة إيقاعها الموسيقى في مزاجية وحسن تقسيم يقربها من الأوزان الشعرية كما أن للخطابة صفتها الأدبية لأن وظيفتها الأولى الإقناع والتأثير مع تخير اللفظ وجودة الرصف وجمال الصياغة ورونق الأسلوب. والصلة كذلك وثيقة بينها وبين الكتابة ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة قد تجعل خطبة والخطبة قد تجعل رسالة في أيسر كلفة»^(١) أيضاً فإن الشعر اتخذ طابعاً خطابياً يكثر فيه الارتجال ويشيع فيه الانفعال والجدل ومواجهة الخصوم في سمت ديني سياسي.

وإذا نظرنا إلى أدب الخوارج وما ورد إلينا من أشعارهم وخطبهم وحكمهم ونواديرهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومناظراتهم وقصصهم ووعظهم وجدنا أن أكثره ينتمي إلى العصر الأموي الذي ازدهرت فيه حركتهم وعظم شأنها.. أما ما روى لهم من أدب في العصر العباسي فهو قليل.. ولعل ذلك يرجع إلى ضعف شأنهم في هذا العصر، وذهاب ريحهم، وخمود حركتهم وهوان أمرهم، وتحطم أسطورتهم مما ترتب عليه ضعف أدبهم وهبوطه.

وقد يكون من الجائز وفقاً للمقاييس السياسية أن الرواة في العصر العباسي قد أتيح لهم أن يرووا من أدب الخوارج في العصر الأموي ما يمكن أن يقيم الحجة على الأمويين وفي ذلك تأييد للعباسيين. أما خصومة الخوارج

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٠٢.

﴿ ٦٠٩ ﴾

للعباسيين فأمر لا ينبغي أن يروى أو يحفظ.

على أنني أذكر على الفور - ما سبق أن قررته وهو أن الخوارج كانوا طوائف منبوذة يتحاشاها الناس ويتجنبونها تفاديا لثورتهم الغاضبة على كل الناس وتجنبنا لغضبة الحاكمين وإذا كان الأمر كذلك فإننا لا نتوقع من الرواة الانتقال إلى مواطن هذا الأدب والأخذ عن أدباء الخوارج وتلقى ما يصدر عنهم وأغلبه يعتمد على الرواية والمشاهدة لا على النصوص المكتوبة^(١).

ويقرر الأستاذ أحمد أمين^(٢) أن ما حفظ من الأدب الخارجي في العصر العباسي أكثره أدب إباضي حفظته مكاتب الإباضية في المغرب وعمان وربما كان ألمع ما وصل منه واشتهر ما قيل في شأن الوليد بن طريف الذي تزعم ثورة الخوارج بالجزيرة عام ثمانية وسبعين ومائة للهجرة على عهد هارون الرشيد الذي وجه إليه يزيد بن يزيد الشيباني وبعد صراع عنيف تمكن يزيد من هزيمة جيش الوليد وقتله وفي ذلك تقول أخته الفارعة الخارجية:

ذكرت الوليد وأيامه	إذ الأرض من شخصه بلقع
فأقبات أطلبه في السماء	كما يبتغي أنفه الأجدع
أضاعك قومك فليطلبوا	إفادة مثل الذي ضيعوا
لو أن السيوف التي حدها	يصيبك تعلم ما تصنع

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٤٥.

(٢) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٤٥.

نبت عنك إذ جعلت هيبته وخوفا لصولك لا تقطع^(١)

لقد كان للخوارج إذن أدب قوى رائع وخاصة فى العصر الأموى كما كان لهم شعراء وخطباء وقصاص ووعاظ ومناظرون كثيرون على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة والبيان يعنون عناية شديدة بكلامهم وتخير عباراتهم بغية غزو القلوب والسيطرة على المشاعر والتأثير فى الجماهير. ولعل ذلك ما دفع عبيد الله بن زياد أن يصرح بقوله.. إن كلامهم أسرع إلى القلوب من النار إلى الهشيم» ويروى المبرد^(٢) أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم فجعل يبسط له من قولهم ويزين له من مذاهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان واضحة حتى قال عبد الملك «لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ثم رجعت إلى ما ثبت الله على من الحجة وقرر فى قلبى من الحق» وهذا كلام له مغزاه من خليفة أموى مستنول ويدل دلالة قاطعة على براعة ولسن وفصاحة وقوة حجة فى مجال الدعوة السياسية. يقول عبيدة بن هلال:

أدباء إما جنتهم خطباء ضمنا كل كتيبة جرار^(٣)

ومن أشهر خطباء الخوارج:

مسعر بن فدكى وشبث بن ربعى وعبد الله بن الكواء وعبد الله بن وهب الراسبى وحر قوص بن زهير وشريح بن أوفى وعبد الله بن سخيرة السلمى وحمزة بن سنان الأسدى وزيد بن حصين الطائى ويزيد بن عاصم

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٤٧.

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٤٦.

(٣) البيان ج ١ ص ٤٠٦ - الحيوان ج ٦ ص ٤٢٣.

﴿ ٦١١ ﴾

المحاربي^(١). ومن الأعلام المشاهير قطرى بن الفجاءة وأبو حمزة الخارجى الشارى وزيد بن جندب خطيب الأزارقة وابن صديقة وشيبيل بن عزرة الضبعى وعمران بن حطان وحبيب بن خدره الهللى والمقطل وعبيدة بن هلال اليشكرى والضحاك بن قيس ونصر بن ملحان وعبد الله بن يحيى والطرماع بن حكيم^(٢). وصالح بن مسرح التميمى.

ومن أشهر شعرائهم: عمران بن حطان وقطرى بن الفجاءة والطرماع ابن حكيم وعمرو بن الحصين وعيسى بن فاتك الحبطى ويزيد بن حبناء والصلت بن مرة وابن المنجب السدوسى والرهمين المرادى وحيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين الخارجى^(٣).

وذكر الشهرستانى من شعرائهم أيضاً: حبيب بن مرة صاحب الضحاك بن قيس وجهم بن صفوان وأبو مروان غيلان بن مسلم ومحمد بن عيسى برغوث وأبو الحسين كلثوم بن حبيب المهلبى وأبو بكر محمد بن عبد الله بن شبيب البصرى وعلى بن حرملة وصالح قبة بن صبيح بن عمرو ومويس بن عمران البصرى وأبو عبد الله بن مسلمة وأبو عبد الرحمن بن مسلمة والفضل بن عيسى الرقاشى ومحمد بن صدقة وأبو الحسين على بن زيد الإباضى وأبو عبد الله محمد بن كرام.....^(٤).

(١) الخطابة فى عصر صدر الإسلام ج ١ ص ٤٣٧.

(٢) البيان ج ١ ص ٤٦، ج ٢ ص ٣٦٤.

(٣) أنظر الكامل للمبرد ج ٢ والأغنى ج ١٠ ج ٢٠.

(٤) الملل والنحل قسم أول ص ١٢٣ وما بعدها.

وفى هذا المجال أشير إلى بعض الأسماء لنساء الخوارج ممن برعن فى الشعر ومنهن: البلجاء وقطام وغزاة وحمادة وكحيلة^(١).

ومن العلماء باللغة وهو من الخوارج «أبو عبيدة معمر بن المثنى»^(٢) ومن مؤلفى كتبهم ومتكلميهم: عبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل وهؤلاء إياضية واليمان بن رباب وكان ثعلبياً ثم صار بيهسيا وسيد بن هارون^(٣) ومن بين المؤلفين «المستورد الخارجى» وقد نسب إليه كارل بروكلمان كتاب الأدب^(٤) وذكر المبرد جملة من أقواله، النصائح والحكم منها^(٥):
«كن أحرص على حفظ سر صاحبك منك على حقن دمك»
«أول ما يدل عليه عائب الناس معرفته بالعيوب ولا يعيب إلا معيب»
«المال غير باق عليك فاشتر من الحمد ما يبقى عليك»
«لو ملكت الأرض بحذافيرها ثم دعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت»

وبعد فقد كانت هذه هى حركة الخوارج: حركة ثورية لها مبادئها واتجاهاتها بدأت عنيفة قوية مرده شعارها: لا حكم إلا لله.. وعمقت جذورها ورسخت دعائمها بعد وقعة النهروان، واتخذت اتجاها ثوريا عنيفا ظل ممتدا طوال العصر الأموى ولم يقدر له أن يتلاشى حتى فى العصر العباسى.

(١) أدب الخوارج: محمد جمعة رسالة مخطوطة ص ٥٩.

(٢) مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعري ج ١ ص ١٨٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٤) تاريخ الأدب العربى. ترجمة عبد الحليم النجار ص ٢٥٨.

(٥) الكامل ج ٢ ص ١٥٠.

﴿ ٦١٣ ﴾

ولقد أدت هذه الحركة السياسية إلى نهضة أدبية شاملة فى كل فنون الأدب: فازدهرت الخطابة ونهض الشعر السياسى محاكيا لها فى أساليبها ودعائمها، واحتدمت المحاورات والمجادلات وتعددت الرسائل، وتآلق القصص وكثرت النوادر، وانتشرت الحكم والمواعظ.

وقد امتزجت فى هذه الفنون النزعة الدينية بالثورة السياسية فكانت بحق تعبيراً أميناً وصادقاً عن آراء الخوارج ومبادئهم بلا غموض أو التواء بلا مداراة أو تقيّة كما كانت بحق تصويراً حيا لأخلاقهم وأفكارهم وعاداتهم وطرائق عيشتهم فى بساطة وحماس وإخلاص وواقعية.

وهكذا يتضح لنا أن أدب الخوارج أدب متميز بملامحه وخصائصه...
أدب رائع بفصاحته وبلاغته... أدب غنى بموضوعاته ومادته...
أدب قوى بحماسة وثورته... أدب خالد بصدقه وأصالته...



الفصل الثالث

النزعة الدينية وأثرها في أدب الخوارج

أطل فجر الإسلام بعد ليل طويل وظلام رهيب ثم ما لبث أن أشرقت شمسها، وملأت بنورها البقاع، وغمرت النجاد والوهاد، وتكونت دولة ولدت قوية، ونشأت فتية، وشبت يافعة بمبادئها ومقوماتها، بقرآنها ورسولها بأحكامها وشريعتها، بأبنائها المخلصين الذين امتلأت قلوبهم إيماناً، ونفوسهم يقيناً، وأرواحهم عزماً وتصميماً، باعوا أنفسهم لله فأكرمهم الله، وجعل أمتهم خير أمة أخرجت للناس.

ولقد شاعت إرادة الله أن تمتحن هذه الأمة امتحاناً قاسياً وهي في عنفوانها فابتليت بمحنة الإمامة والخلافة فكان الصراع رهيباً، وكانت الفتنة طاغية لكنها في أول الأمر مرت بسلام فكانت بيعة أبي بكر فلتة. ووفق الله أبا بكر فبايع عمر بالخلافة من بعده. ثم رأى عمر أن يترك الأمر شورى للناس في ستة يختارون منهم إماماً لهم وخليفة فوق الاختيار على عثمان بن عفان وقد حدث في عهده ما حدث مما أنكره الناس عليه، وكانت أول ثورة عنيفة موجهة ضد الخليفة الثالث وكانت الثورة على عثمان عملاً سياسياً منبعثاً عن تفكير سياسي^(١). ولكنها كانت تركز على أصول دينية في مقاومة المنكر والجور الذي وقع فيه ولاية عثمان من ذوى قرابته. وتمكن الثائرون من قتل عثمان - رضى الله عنه - ثم بويح الإمام على بالخلافة.. لكن الأحداث لم تكن هكذا تمر بسهولة فقد احتدم الصراع العنيف

(١) الخطابة في صدر الإسلام. د. محمد طاهر درويش ج ١ ص ١٧٦.

بين على ومعاوية... كما قدمت. وسبق أن بينت...

وفى كل هذه الأطوار كان الروح الدينى هو المسيطر على قلوب الناس ووجدان الجماهير، ولم يكن فى وسع أى إنسان أن يتحرك بعيدا عن الدين حقيقة أو ادعاء. وكثرت الطوائف والفرق والأحزاب، وكانت كل فرقة وطائفة تدعى أنها على الحق والهدى وأن غيرها من الفرق والطوائف على ضلال وزور وبهتان.. وكان الروح الدينى بحق منطلقا فسيحا للتأثير فى مشاعر الناس وعواطفهم فى وقت كانت فيه شريعة الإسلام مهيمنة على كل قلب مسيطرة على كل وجدان وعلى هذا الأساس لم تتخذ الأحزاب شكلا سياسياً بحتا بل اصطبغت صبغة دينية قوية، وصار كل حزب سياسى فرقة دينية^(١) وامتد الصراع ليشمل المسائل الدينية والأحكام الشرعية حول الكفر والإيمان، والمؤمن والكافر ومرتكب الكبيرة والوعد والوعيد والثواب والعقاب والقضاء والقدر والعدل والتوحيد إلى آخر هذه البحوث التى تبدو فى ظاهرها دينية بحتة بينما هى فى حقيقتها من وحى الصراع السياسى العنيف الذى كان لابد من وجهة النظر السياسية أن يغلف بأغلفة دينية ويصطبغ بالصبغة الإسلامية. ولم يكن مستغربا أن نرى كل الطوائف والفرق تحرص على هذا الاتجاه من الاعتصام بالدين واللجوء إلى آياته وأحكامه للتدليل على سلامة المبادئ وأصالتها، ومن هنا رأينا الخلاف يحتدم حول الأمور الدينية ورأينا كل حزب له أدلته الدينية وبراهينه وحججه المدعمة بالأسانيد الشرعية إذ القلوب مفعمة بروح الدين ونفوس الناس ممثلة به يستهوهم العمل تحت

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٥.

﴿ ٦١٦ ﴾

شعاره والتحرك في نطاقه، والانطلاق في مجاله.

وإذا كان هناك «الشيعة» الذين يرون أحقية على وبنية من بعده بالخلافة بحكم الدين. فهناك الأمويون الذين يدعون أن خلافة معاوية وأولاده من بعده إنما هي خلافة شرعية تمت بموافقة أهل الحل والعقد في الأمة وأنهم أحق الناس بوراثة الخلافة عن عثمان الخليفة المقتول ظلماً وعدواناً.

وهناك الخوارج الذين يرون أن الخلافة حق لكل مسلم عربياً كان أو غير عربي ما دام لها كفاً وما دام قد اختير اختياراً صريحاً وهم غير راضين عن الجميع الذين أعرضوا عن الحق ولم يقاوموا الباطل لذا فإنهم يكفرون كل من خالفهم في عقيدتهم ويعتبرون ديار المسلمين ديار حرب حتى تعلق كلمة الحق ويرتفع حكم الله.

وهناك الذين وقفوا وقفة حياد سلبى لا يخطئون أحداً ولا يكفرون جماعة ويتركون الأمر كله لله. وهؤلاء هم المرجئة^(١).

وهناك طائفة «المعتزلة» التي تمثل فكرة سياسية مصبوغة بالدين وقوامها أن الحق ليس بجانب إحدى الفرقتين المتنازعتين وأن الحق لم ينكشف في جانب إحداهما والدين يأمر بقتال من بغى فإذا كانت الطائفتان باغيتين أو لم يعرف الباغي اعتزلتا. ورأوا أن ليس حقاً ما عليه الخوارج من تكفير وحرب وقتال وما عليه المرجئة من لين وتسامح، وبذلك وقف المعتزلة بين الخوارج والمرجئة موقفاً وسطاً لا بالشديد ولا بالهين اللين فقالوا بالمنزلة بين

(١) الملل والنحل للشهرستاني القسم الأول تخريج ابن فتح الله بدران ص ١٢٥.

المنزلتين ومرتكب الكبيرة على ذلك ليس مؤمنا وليس بكافر. وهذا المبدأ يستتبع آراء ساسية خطيرة فقد اضطر المعتزلة أن يطبقوا نظريتهم هذه على كل الأعمال والأحداث التي وقعت منذ نشوب الخلاف فى جراءة وصراحة^(١).

وما كان للحوارج وقد اختطوا لأنفسهم منهجاً عملياً ثورياً فى مقاومة الباطل أن يتخلفوا عن تيار الحجاج النظرى والجدل الفكرى والبحث الدينى فى كل الأمور التى طرحت للبحث كتبريز قوى وسند مكين لاتجاههم الثورى العنيف ولقد كان لهذه الأمور الساسية الطارئة آثار بالغة فى توجيه الفكر نحو دراسات دينية تتصل بجوانب حيوية فى شئون العقيدة والدين.

وقد امتزجت هذه الآراء الساسية بالبحوث الدينية فى فترة كان الدين فيها هو المقياس الأصيل والمسيطر القوى على النفوس ووجدت الساسة نفسها مرغمة على أن تعتم على القواعد والأصول الدينية ووجد الساسة أنفسهم فى حاجة ملحة لأن يتلمسوا فى حقائق الدين ما يعينهم على نشر مذاهبهم وسيطرة اتجاهاتهم، وهم فى ذلك كله يسلكون طرقاً وعرة ومسارب خفية دقيقة تشوبها شبهات وشبهات وتكتنفها أغراض وأهواء وتوجهها فى كثير من الأحيان أطماع وشهوات فكثر البحث فى العقائد وتشعب واتخذ ألوانا جديدة واتجاهات عديدة، ولقد تبلورت هذه البحوث والدراسات وتركزت ممثلة فى علم جديد هو علم الكلام. وكان لعلماء الكلام وللمتكلمين من معتزلة ومرجئة وشيعة وحوارج سبق وتقدم فى مذهب جديد له أصوله وقواعده، وأسس منهجه.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٤ ص ٤٥٤.

وقد نراه يخالف نهج القرآن والسنة أو يغاير منهج الفلاسفة^(١).

لكنه يبقى بعد ذلك مذهب خاص متميز يغاير ما كان عليه الأولون هؤلاء الذين آمنوا وصدقوا بالطبيعة والفطرة بلا جدل ولا صخب ولا ضجيج واكتفوا بالفهم اليسير والاقتناع المجمل بلا تفاصيل ولا خوض فى متاهات تضل العقول وتحير الأفهام.

وأقول على الفور إن هذه النزعات الدينية إنما كانت فى حقيقة أمرها وبشئ من التعمق وراء المظاهر لخدمة أهداف سياسية بحتة وخاصة فى تلك الفترة التى احتدم فيها الصراع وتعددت الفرق ونشبت المعارك والحروب: فقد أثيرت مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لينفصح المجال أمام ثورات عديدة متعاقبة وكل طائفة تفسر المعروف والمنكر كما يترأى لها ويتمشى مع مبادئها وأهدافها فالمعروف عند الأمويين الطاعة والمنكر الخروج على الأئمة ومقاومة النظام الحاكم. والمعروف عند الخوارج هو الثورة ضد الحكام المارقين الذين حادوا عن الحق وأقاموا على الباطل وكل الحكام فى نظرهم على ضلال: عثمان وعلى ومعاوية وكل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس... الكل غير صالح ومقاومتهم واجبة والخلفاء الصالحون فى نظرهم هم: عبد الله بن وهب الراسبي وعروة بن أدية وأبو بلال مرداس وقطرى بن الفجاءة وأبو حمزة الخارجي وشبيب وغزالة... فهل هذا من الدين!؟

إنها الأهواء السياسية من غير شك.

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ١١.

كما أثيرت مسألة الجبر والاختيار وكان هوى الأموية مع الجبر وكرهية القول بحرية الإرادة لأن الجبر يخدم سياستهم: فالله هو الذى يسير الأمور وقد اقتضت مشيئته أن يكون بنو أمية هم الحكام والخلفاء قضاء وقدرًا ومن الواجب على كل مسلم الخضوع والإذعان للقضاء والقدور.

فهل يعد هذا حقا من الدين فى شئ!؟

والشيعة بدورهم أثاروا مسألة الإمامة والخلافة ورأوا أن هذه الإمامة منحصرة فى على وذريته وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد نص على خلافة على وأن الإمام على قد عهد بها لمن بعده ومعنى ذلك - من وجهة نظرهم - أن أبا بكر وعمر وعثمان قد اغتصبوا حقه فى الخلافة وأن الخلفاء من بنى أمية ومن بنى العباس معتدون غاصبون، وأن من الواجب على كل شيعى أن يعمل سرا وجهرا حتى يعود الأمر إلى أهله... فهل هذا من الدين؟؟ هكذا.. فرقة تكفر الإمام عليا وتخرجه من حظيرة الإسلام... وفرقة أخرى تقدسه وترفعه إلى مستوى الإله وترى أنه هو النبى وهو الرسول وأن الوحي قد أخطأ إليه طريقه!!!^(١).

حقا فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور!! وما كان للحزب الأموى الحاكم أن يقف مكتوف اليد إزاء هذه الأحداث... فهؤلاء هم الأمويون يرفعون بدورهم شعار الدين فهم الخلفاء الشرعيون الذين اختارهم الله أئمة للناس وأعزبهم الحق وأنقذ الأمة وهم أولياء دم الخليفة المقتول عثمان بن عفان وأصحاب الخلافة من بعده... وإذا كان للشيعه مهدي

(١) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٦٤، ص ٦٧.

منتظر فإن لهم السفينى المنتظر يأتى فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت
جوراً...^(١) وهكذا!!!

عاش الخوارج فى هذا الصراع ورأوا بأعينهم وسمعوا بأذانهم فمضوا
فى ثورتهم العاتية ضد الجميع يعصفون بكل شئ ولا يسلم منهم أحد لأن
الناس فى اعتقادهم قد كفروا وخرجوا عن الدين وأن الحكام ومن يطالبون
بالحكم كلهم طلاب دنيا وكلهم على الباطل، وقد زادهم حماساً وإيماناً بما
يعتقدون تدينهم الفطرى ونقاء نفوسهم وصفاء أرواحهم وجرأتهم فى الحق
واستماتتهم فى سبيله وإقدامهم على الموت طواعية من أجل إعلاء كلمته.

ولئن كان الصراع السياسى هو الذى حرك هذه الطوائف والفرق فى
بادئ الأمر فإن ما كان عليه الخوارج من إيمان وإخلاص وصلابة عقيدة
وجرأة فى الحق واستهانة بالموت فى سبيله والتضحية من أجله قد حول
الموقف فى أيديهم إلى ثورة سياسية عاتية ضد كل القوى المناوئة.

ولقد اشتدوا فى معاملة مخالفيهم من المسلمين وتشددوا فيما يذهبون
إليه^(٢) فلم يرضوا من مخالفيهم أن يحكموا بالخطأ على عثمان وعلى رضى
الله عنهما بل لا بد من الحكم بكفرهما وكفر من ناصرهما، كما طلبوا من عبد
الله بن الزبير أن يتبرأ من أبيه، ولم يكتفوا من عمر بن عبد العزيز بعدله
وحسن سيرته بل طلبوا منه كذلك أن يتبرأ مما تبرأوا منه وأن يلعن أسلافه

(١) الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ج ١٦ ص ٨٨.

(٢) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٥٩.

﴿ ٦٢١ ﴾

من بنى أمية، كذلك كان كثير منهم لا يتحرج من قتل المرأة الطعينة والطفل الرضيع والشيخ الفاني وهم في ذلك كله يتمسكون بالظواهر التي لا سند لها ويقعون في متناقضات عجيبة من أجل ذلك^(١).

ولعل هذا التشدد مع إقدامهم على سفك الدماء هو أكبر ما شوه حركتهم وعجيب حقا أن نرى هؤلاء المتشددين العتاة وقد أمضوا نهارهم في الجهاد والصيام وليلهم في العبادة والقيام يقبلون على الله في شغف ويقين ويصلون كلال الليل بكلال النهار لا يخشون في الله لومة لائم ولا يقعد بهم عن الجهاد رهبة من موت أو خوف من حاكم.

والطرماح بن حكيم الشاعر الخارجي يعبر عن هذه العقيدة التي يعتنقها الشراة الذين باعوا أنفسهم لله وفي سبيل دعوة الحق ويرى في هذه العقيدة عصمة من النار فيقول^(٢):

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفز فوزة تتجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشارى

ويقول في هؤلاء الشراة^(٣):

لله در الشراة إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعون الحنين أونة وإن علا ساعة بهم شهقوا

(١) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٦٣ وما بعدها وص ١٧٢ وما بعدها والفخرى

ص ٩٠، ص ٩١.

(٢) الديوان ص ١٤٩.

(٣) الديوان ص ١٥٧ والأغاني ج ١٠ ص ١٥٢.

﴿ ٦٢٢ ﴾

خوفا تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تتفلق
كيف أرجى الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسى فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا

هؤلاء هم الشراة من الخوارج تراهم مسهدين يتلون آيات الله
ويشهبون في تلاوتها كلما ذكروا العذاب فالقلوب واجفة خوفاً من ربها حتى
لتكاد الصدور تشقق عنها. والشهرستاني يصفهم بأنهم أهل صوم وصلاة
ويقول المبرد عنهم إنهم في جميع أصنافهم يبرأون من الكاذب ومن ذى
المعصية الظاهرة وقد كان المهلب بن أبى صفرة يحاربهم باختلاق الأحاديث
عليهم فقد كان يضع الحديث يشد به أزر قومه ويضعف به من أمر الخوارج
ما اشدد متعللاً بأن الحرب خدعة وكان حى من الأزدي إذا رأوا المهلب خارجاً
قالوا: «راح يكذب» ينشد أحدهم:

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول^(١)

وقد وصف أحد الموالى سيده عروة بن أديّة الخارجى لزياد فقال: «ما
أتيته بطعام بنهار قط، ولا فرشت له فراشا بليل قط»^(٢) يعنى بذلك أنه يقضى
نهاره صائماً وليله قائماً. وحين توجه ابن عباس لأهل النهروان من الخوارج
من قبل الإمام على رأى منهم جباها قرحة لطول السجود وأيديا كثففات الإبل
عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون»^(٣) هكذا كان الخوارج يتصفون بالعقيدة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ١ ص ٣٨٦.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١٦.

(٣) نفس المرجع ص ١٣٤. ثفنت يده: غلظت، وثفنة البعير: ركبته وما يليها.

مرحضة: كأنها مغسولة بالعرق.

﴿ ٦٢٣ ﴾

الراسخة والثبات عليها والتضحية بالنفس من أجلها والأمر في ذلك كله يرجع إلى ما يعتقدون أنه الحق وفق فهمهم لظاهر كتاب الله وسنة رسول الله فهذا هو عبد الرحمن بن ملجم يقدم على اغتيال الإمام على وهو يعتقد أنه عمل عملا عظيما يستحق عليه رضوان الله ويروى أنه أخذ فقطعت يده ورجلاه فلم يفزع ثم أريد قطع لسانه ففزع الرجل فقيل له: لم لم تجزع لقطع يدك ورجليك وتفزع لقطع لسانك؟ وإذ به يجيب:

«إنى أكره أن تمر بى ساعة لا أذكر الله فيها»^(١).

وفى ذلك يقول عمران بن حطان مادحا ابن ملجم:

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
فأكرم بقوم بطون الطير أقبرهم لم يخلطوا دينهم بغيا وعدوانا^(٢)

وكان الواحد منهم يسعى إلى قاتله والرمح فى صدره وهو يقول:

«وعجلت إليك ربى لترضى»^(٣) وهذا هو شبيب الشيبانى الخارجى المكنى بأبى الصحارى يردد قول الله تعالى وفرسه يخوض به غرقا فى النهر:

«ذلك تقدير العزيز العليم»^(٤).

(١) المرجع ص ١٢٨.

(٢) المرجع ص ١٠٩ ومقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٨٥ هامش تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد.

(٣) المرجع ص ١٣٩.

(٤) الملل والنحل للشهرستانى القسم الأول ص ١١٤.

ولقد كان هذا الروح القوي الذي يسرى في نفوسهم ويملاً قلوبهم عاملاً بارزاً من عوامل النصر في معارك كثيرة خاضوها بالإيمان واليقين معتقدين أن الله يؤيدهم ويمدهم بملائكته ويرعاهم بعنايته وقد عبر عن هذا المعنى عيسى بن فاتك حين تمكن أربعون رجلاً من الخوارج من هزيمة ألفين من جند ابن زياد فيقول^(١):

ألفاً مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعوناً
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنوناً
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصروناً

ولقد جمعت بينهم هذه العقيدة وألفت بين قلوبهم فكانوا بحق رفقاء سلاح وكفاح وأهل وفاء وإخلاص وهذا أبو بلال من زعماء الخوارج يقول^(٢):
أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقوى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيارب سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى ألقى أولئكا
وقد قدر لأبي بلال هذا أن يلقى صحبه ورفاقه في معارك النضال فيلحق بهم وفيه يقول عمران بن حطان^(٣):

لقد زاد الحياة إلى بغضا وحباً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرى العوالى

(١) المرجع ص ١٥٨.

(٢) المرجع ص ١٥٦.

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٠٨.

﴿ ٦٢٥ ﴾

لقد أعرضوا عن الحياة ورجبوا في جنب الله فسلكوا السبيل التي رأوا أنها توصلهم إلى مرضاته في ثبات وثقة ويقين.... وهذه أم حكيم امرأة مناضلة وهبها الله جمالا وتمسكا بالدين وجرأة في الحق طالما رفضت الزواج وفضلت الاستشهاد في سبيل المبدأ فكانت تخوض المعارك وهي ترتجز:
أحمل رأسا قد سنمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنى ثقله^(١)

وهذه أيضا البلجاء امرأة من بنى حرام من مجتهدات الخوارج ذكرها عبيد الله بن زياد وكان شديدا على الخوارج فحذرهما أبو بلال قائلا لها: إن الله قد وسع على المؤمنين في التقية فاستترى فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك فتجيبه بقولها:

«إن يأخذنى فهو أشقى بى فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببى»
وقد مر أبو بلال بعد ذلك والناس مجتمعون فسأل فقالوا إنها البلجاء قطع ابن زياد يديها ورجليها ورمى بها في السوق. فعرض على لحيته وقال لهذه أطيبت نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس^(٢).

كما كان الخوارج شديدي التمسك بالقرآن والتزام أحكامه والتقييد بظواهر الأوامر والنواهي وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم التحمس للحق والتمسك به والاستهانة بالموت في سبيله. ولو أنهم تجاوزوا الحد في ذلك ووصلوا إلى قمة المغالاة والشطط حتى تألب الكل

(١) الأغاني ج ٦ ص ٦ «ساسى» فجر الإسلام ص ٢٦٤.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٥.

عليهم ومع ذلك لم يبالوا بشئ وضربوا المثل الأعلى في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة. وليس هذا بعجيب فلقد كان منهم القراء والنساک والصالحون العابدون وأهل الفقه والبصر بالدين نذكر منهم أبا بلال مرداسا في قشفه وبصيرته وصحة عبادته وظهور ديانته، والمستورد بن علفة بكثرة صلاته وشديد اجتهاده وعظيم آدابه وحكمه المحفوظة عنه، وعمران بن حطان في معرفته بأبواب العلم ومسائل القرآن والآثار والسير، وقطرى بن الفجاءة في مواظبه ودرايته وقوة بصيرته، وصالح بن مسرح التميمي في ورعه وتدينه وفقهه وبصره بالدين. وهؤلاء جميعاً قد هزتهم الأوضاع الفاسدة والأطماع البشعة فهبوا ثائرين على الجميع وعدتهم في ذلك الجهاد بالسيف وليس مجرد القول باللسان وكان هدفهم شن الحرب على المستبدين الطغاة والولاة الظالمين وحماية الضعفاء والمضطهدين.

ولم يرض الخوارج الذين عرفوا بالزهد والتقوى عن انصراف بعض الخلفاء الأمويين إلى اللهو وانغماسهم في الترف ولذلك استقر رأيهم على العمل للعودة إلى العهد الإسلامي الأول عهد المساواة والإخاء^(١). وقد حملهم شديد إيمانهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة إلى مبادئهم جهرا والعمل على تحقيقها ولطالما بعثوا بالرسل إلى الخلفاء والولاة يبصرونهم ويدعونهم إلى الهدى وسبيل الرشاد وهم من أجل ذلك لم يرضوا بتضحية مهما عظمت وتاريخهم مملوء بالبطولة الفذة والشجاعة النادرة. يقول الأصفهاني^(٢).. وليس

(١) أعلام العرب: المختار النقي د. على حسنى الخربوطلى ص ٢٧٧.

(٢) الأغاني ج ٦ ص ٦ وما بعدها.

﴿ ٦٢٧ ﴾

فى الأفراق كلها أشد بصائر من الخوارج ولا أشد اجتهاداً ولا أوطن أنفساً
على الموت...

هذا شاعرهم وزعيمهم قطرى بن الفجاءة كان يرتجز فى معاركه:
حتى متى تخطتني الشهادة والموت فى أعناقنا قلادة
ليس الفرار فى الوغى بعبادة يا رب زدنى فى التقى عبادة
وفى الحياة بعدها زهادة^(١)

وروى أن معاوية أرسل رجلاً إلى ابنه من الخوارج ويدعى «حوثر»
الأسدى» وقال له «يا أبا حوثره اكفى أمر ابنك» فصار إليه أبوه فدعاه إلى
الرجوع فأبى فأداره فصمم فقال له «يا بنى أجبنيك بابنك فلعلك تراه فتحن
إليه» فقال: يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح
أشوق منى إلى ابني» وقد جابه حوثره أهل الكوفة حين رآهم مع معاوية بقوله
«يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه، واليوم تقاتلون مع
معاوية لتشدوا سلطانه فخرج إليه أبوه يدعوه إلى البراز. فقال: يا أبت لك فى
غيرى مندوحة، ولى فى غيرك عنك مذهب، ثم حمل على القوم وهو يرتجز:
أكرر على هذى الجموع حوثره فعن قليل ما تنال المغفرة^(٢)

والرهين المرادى من الخوارج وكان على دراية واسعة بمسائل كثيرة
من أبواب العلم فى القرآن والآثار والسير والسنن والغريب والشعر نستمع إليه
يقول فى حنين بالغ إلى الاستشهاد والتقائه بإخوانه فى النضال الذين سبقوه

(١) الأخبار الطوال ص ٢٧٧. الفتوة عند العرب: عمر الدسوقي ص ٢١٣.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٠.

إلى الله:

يا نفس قد طال في الدنيا مراوغتى لا تأمن لصرف الدهر تنغيصا
إنى لبائع ما يفنى لباقيّة إن لم يعقنى رجاء العيش ترييضا
وأسأل الله ببيع النفس محتسبا حتى ألقى في الفردوس حرقوصا^(١)

وفي مجال الدعوة إلى مذهبهم وعقيدتهم أذكر هذه الرسالة التي بعث بها نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن الزبير وفيها يقول^(٢):

«أما بعد فإنى أحذرك من الله يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه فاتق الله ربك ولا تتول الظالمين فإن الله يقول «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ وقد حضرت عثمان يوم قتل فلعمري لئن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه ولئن كان قاتلوه مهتدين - وإنهم لمهتدون - لقد كفر من يتولاه وينصره ويعضده، ولقد علمت أن أباك وطلحة وعلياً كانوا أشد الناس عليه وكانوا في أمره من بين قاتل وخاذل وأنت تتولى أباك وطلحة وعثمان وكيف ولاية قاتل متعمد ومقتول في دين واحد!!!»

ولقد ملك على بعده فنفي الشبهات وأقام الحدود وأجرى الأحكام مجاريها وأعطى الأمور حقائقها فيما عليه وله فبايعه أبوك وطلحة ثم خلعاه ظالمين له وإن القول فيك وفيهما لكما قال ابن عباس إن يكن على في وقت

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٨.

معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمنا أما لقد كفرتم بقتال المؤمنين وأئمة العدل، ولئن كان كافرا كما زعمتم وفي الحكم جائرا لقد بؤتم بغضب من الله لفراركم من الزحف، ولقد كنت له عدوا ولسيرته عائبا فكيف توليته بعد موته فاتق الله فإنه يقول: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم».

هكذا صراحة وقوة وجرأة في الحق وحفظ لآيات الله وخبرة بالجدل والمنطق والبرهان وتمسك بالعقيدة وإيمان بها ودعوة إليها والاستهانة بكل شئ من أجلها. ولعلمهم كانوا يعلمون أن ابن الزبير طالب دنيا لا يبتغى المصلحة العامة للأمة. يروى المسعودي عن ابن الزبير^(١) أنه «يظهر الزهد في الدنيا، والعبادة مع الحرص على الخلافة وكان يقول: إنما بطنى شبر فما عسى أن تسع ذلك من الدنيا وأنا العائذ بالبيت والمستجير بالرب. وفي ذلك يقول الضحاك بن فيروز الديلمي هاجيا ابن الزبير:

تقول لنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئا قضمته كما قضمت نار الغضى حطب السدر^(٢)

وكما قلت فإن الخوارج كانوا يحرصون على الدعوة إلى مذهبهم وعقيدتهم وقد وضعوا لذلك برنامجا دينيا يكشف عنه قولهم الذي أورده الطبري^(٣):

«لو خرج منا خارجون في سبيل الله فقد كانت منا فترة فقد خرج

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٢.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ج ٤ ص ٢٧.

(٣) الطبري ج ٧ ص ٥٦.

﴿ ٦٣٠ ﴾

أصحابنا فيقوم علماءنا في الأرض فيكونون مصابيح الناس يدعونهم إلى الدين ويخرج أهل الورع والاجتهاد فيلحقون بالرب فيكونوا شهداء مرزوقين عند الله».

ومن هنا كانت مجابتهم للولاية والحكام وتذكيرهم بالموت وتحذيرهم من باطل الدنيا وغرورها وفي ذلك يقول قطري من موعظة له بعد أن ذكر الذين قالوا من أشد منا قوة:

«حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا فيها فلا يدعون ضيفانا وجعل لهم من الضريح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران فهم جيرة لا يجيبون داعيا ولا يمنعون ضيما، إن أخصبوا لم يفرحوا وإن أقحطوا لم يقنطوا، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد متعاضون لا يزارون ولا يزورون، حلماء قد ذهبت أضغاثهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم ولا يرجى دفعهم وكما قال جل وعز: «فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحق الوارثين»^(١) ولم يكونوا يخشون في الحق لومة لائم حتى في أشد المواقف حرجا وخير ما يدل على ذلك حديث عروة بن أديّة مع زياد بن أبيه وكان جبارا ذا بطش شديد فسأله عن أبي بكر وعمر فقال عروة خيرا ثم سأله فقال ما تقول في أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأبي تراب على بن أبي طالب.. فتولى عثمان ست سنين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر وفعل في أمر على مثل ذلك إلى أن حكم ثم شهد عليه بالكفر ثم سأله عن معاوية فسبه سبا قبيحا ثم سأله عن نفسه فقال.. أولك لزنية وأخرك لدعوة وأنت بعد

(١) البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٢٨.

﴿ ٦٣١ ﴾

عاص لربك»^(١) وأمر به زياد فضربت عنقه ثم سأل عنه مولى له كان معه فقال صف لى أمره. قال المولى: أأظن أم أختصر؟ فقال: بل اختصر قال الرجل.. ما أتيت بطعام بنهار قط ولا فرشت له فراشا بليل قط»^(٢) وهذا أخوه أبو بلال مرداس بن أديّة يستمع إلى تهديد زياد فى خطبته البتراء بالبصرة فيقوم إليه أبو بلال بعد فراغه من خطبته ويقول: «أبأنا الله بغير ما قلت فقال: «وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» وأنت تزعم أنك تأخذ البرئ بالسقيم والمطيع بالعاصى والمقبل بالمدير» فرد عليه زياد بقوله: «إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضا»^(٣) وأبو بلال هذا هو الذى يروى عنه أنه مر بأعرابى يهنا بعيرا له فهرج البعير فسقط مرداس مغشيا عليه فظن الأعرابى أنه قد صرع فقرا فى أذنه فلما أفاق قال له الأعرابى قرأت فى أذنك فقال له مرداس: ليس بى ما خفته على ولكنى رأيت بعيرك هرج من القطران فذكرت به قطران جهنم فأصابنى ما رأيت^(٤).

وهناك مواقف إنسانية رائعة إن دلت على شئ فإنما تدل على مثل عليا وقيم روحية صافية تحلت بها هذه الطائفة وظهرت فى أقوالهم وأفعالهم فقد روى عن أبى بلال أنه أبى إلا أن يعود إلى سجنه بنفسه مع علمه بأن ابن زياد قد أمر بقتل كل من فى حبسه وذلك وفاء للسجان الذى كان يسمح لأبى

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١٦.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١٦.

(٣) البيان ج ٢ ص ٦٥.

(٤) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٥.

بلال بالانصراف إلى بيته ليلاً والعودة في الغلس لما وجدته من شدة اجتهاده وحلاوة منطقه وقد قال له أهله حين تهيأ للرجوع إلى سجنه «أتق الله في نفسك فإنك إن رجعت قتلت» فقال في تصميم: إنى ما كنت لألقى الله غادراً»^(١).

وقد وجه عبيد الله بن زياد عباد بن الأخضر لقتال الخوارج وكان اللقاء في يوم جمعة وقد حاول الخوارج أن يردوا عباداً لكنه لم يقبل واقتتل القوم حتى جاءت الصلاة فطلبوا المواجهة حتى يصلوا فسمح لهم بذلك لكن عباد بن الأخضر غدر بالقوم فأسرع إليهم وهم في صلاتهم بين قائم وراكم وساجد ومعه جنده فقتلوه جميعاً وكان فيهم أبو بلال مرداس وداود بن شيبث وكان ناسكاً وفيهم حبيبة النصرى من قيس وكان مجتهداً.

ويقال إن حبيبة لما عزم على الخروج فكر في بناته وعزم على الإمساك عن تفقدهن فلما كان في جوف الليل استسقت بنية أى طلبت الماء فلم يجيبها فأعدت فقامت أخت لها أسن منها فسقتها يقول حبيبة: فعلمت أن الله عز وجل غير مضيعهن فأتملت عزمي. وكان فيهم أيضاً كهمس وكان من أبر الناس بأمه يروى أنه قال لأمه «يا أمه لولا مكانك لخرجت فقالت له: يا بني قد وهبتك لله.

وفي هؤلاء يقول عيسى بن فاتك الحبطي^(٢):

ألا في الله لا في الناس شالت بـداود وإخوتـه الجذوع

(١) المرجع السابق.

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٩.

﴿ ٦٣٣ ﴾

مضوا قتلا وتمزيقا وصلبا تحوم عليهم طير وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وهكذا تمضى بنا الشواهد والدلائل على هذه النزعة الدينية القوية..

ولكن هل يعنى هذا أنه لم تكن للخوارج أهداف سياسية وأغراض خاصة؟؟
إننى لا أتفق مع ما يراه «نيكلسون» فيما رواه عنه الدكتور حسن إبراهيم^(١)
من أن الخوارج لم تكن لهم مآرب شخصية أو أغراض خاصة يرمون إلى
تحقيقها من وراء حركتهم كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية. كما أننى
لا أتفق مع الدكتور حسن إبراهيم فى تأييده لوجهة نظر «نيكلسون»^(٢).. ذلك
أن الخروج فى بدايته إنما كان خروجاً على الخلافة والحكم والأمر كان أمر
إمامة وسياسة أولاً وقبل كل شئ، وكانت هناك مآرب وأهداف ولم يكن الأمر
أمر جهاد وحرب وصراع وقتلى فى سبيل لا شئ.. نعم لم يكن الأمر خالصاً
لوجه الله والحق والدين كما أراد الله للحق والدين أن يكونا فإن الحق أبلج
والدين واضح صريح وليس من الدين تكفير المسلمين واعتبار ديارهم ديار
حرب، وليس من العقل ولا من الدين اعتبار كل الخلفاء والحكام ابتداءً من
الخليفة الثالث عثمان بن عفان كفره بينما لا يبقى على الإسلام إلا رؤساؤهم
وزعماءهم وإخوانهم فى الحزب ورفاقهم فى الكفاح. وهذا يقتضى من
الباحثين أن يقيسوا الأمر بمقياس الدين الصحيح: الدين كما أراد الله له أن
يكون سماحة وصفاء ورحمة وتعقلاً وتبصراً وسعة أفق وسعة صدر وتقديراً

(١) تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٣٠٥.

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٠٥.

للمسئولية وليست العبرة بهذه المظاهر مهما وصلت حدتها ما دامت لا تركز على فهم عميق واع بأصول الدين وأساسه القويمة، ولو أن مصلحة الأمة كانت هي الهدف ولو أنه لم تكن هناك أمور سياسية هي موضع الاعتبار لثم سريعا عودة هذه الطائفة إلى صفوف الإمام على بعد أن حاورهم وناظرهم وأقنعهم بالحق وأعلن استئناف القتال ضد أهل الشام بقيادة معاوية بعد انتهاء مهزلة التحكيم... لكن شيئا من ذلك لم يحدث.

ولئن احتج الدكتور حسن إبراهيم لرأيه في زهدهم بما رواه الطبري عن شبيب الخارجي^(١) حين انتهى إلى إحدى المدن وندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها فاحتالوا عليه حتى تمكنوا منه وقتلوه ثم احتزوا رأسه ونهبوا الخزائن وأتوا بالمال ورأس العامل إلى شبيب فنظر إلى المال وقال: أتيتمونا بفتنة المسلمين هلم - الحربة يا غلام فخرق بها البدر ونخس الدابة فانطلقت والأموال تتناثر منها ثم قال إن بقي شيء فاقذفه في الماء» أقول إن احتج الدكتور حسن إبراهيم بأمثال هذه الأفعال فإنها من وجهة نظري أفعال لا تدل على دين أو زهد بقدر ما تدل عليه من غفلة وقلة بصر وسوء تصرف وتدبير.

والعجيب أن الدكتور حسن يقرر في موضع من كتابه تاريخ الإسلام السياسي^(٢) أن الخوارج كانوا في أول الأمر حزبا سياسيا لا يعدو بحثه مسألة

(١) الطبري ج ٧ ص ٢٤٨.

(٢) الطبري ج ٧ ص ٢٤٨.

الخلافة وما يتصل بها ويقول في موضع آخر^(١).. كانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية خالصة بخلاف ما ذهب إليه نيكلسون من أن الدافع الأصلي للخوارج إنما هو دافع ديني برغم ما كان يشوبه من مظهر سياسي» والسياسة كما نعلم أهواء وميول ومنافع ومصالح وشهوات... ولعله مما يدل على ذلك ما روى عن الإمام على أنه قال في آخر أيامه^(٢) «لا تقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه» وما روى عن عمر بن عبد العزيز من أنه قال لبعض الخوارج^(٣) «إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها» وهذا ما قصدت تماما أن أقرره: أراد هؤلاء الناس الوصول إلى الحق كما هو في معتقدكم وناضلوا في سبيله فإذا بهم يخرقون في خضم السياسة وإذا بهم يبتعدون عن جوهر الدين كما أراد الله للدين أن يكون: فهما ودراية وإذابهم وقد تعددت فيهم الزعامات وكثر الأئمة واحتدمت الخلافات بلا جدوى ولا طائل أرادوا الوصول إلى الحق ففتكوا بالإمام على وبذلك سلم الأمر من بعده لمعاوية واستمرت الخلافة في بني أمية قرابة قرن من الزمان.

أرادوا الوصول إلى الحق فكانوا يخرجون بسيوفهم في الأسواق فيجتمع الناس على غفلة وحينئذ يرددون شعارهم «لا حكم إلا لله» ويضعون سيوفهم فيمن يلحقون بالناس فلا يزالون يقتلون حتى يقتلوا وكان الواحد منهم

(١) تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٠٠، ص ٣٠١.

(٢) فجر الإسلام ص ٢٦٣.

(٣) فجر الإسلام ص ٢٦٣. العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٠١ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

إذا خرج لا يرجع أو يقتل فكان الناس منهم على وجل وفتنة^(١).

وعلى أى حال فلقد كان لهذه النزعة الدينية فيهم والإخلاص لما يعتقدون أنه الحق والشدة في الدين والصلابة والثبات على المبدأ أثرها العظيم في أدب الخوارج شعرا ونثرا: فأدب الخوارج أدب صريح يعكس بحق أخلاقهم وطباعهم وعقائدهم ويعبر بصدق عن مشاعرهم وأحاسيسهم وخلجات نفوسهم، ويصور بدقة بيناتهم وتجمعاتهم والظروف المحيطة بهم وأنت تقرأ أدب الخوارج فتلمح فيه ذلك الروح يسرى في كيائك ويشيع في وجدانك فتتفعل به النفس ويمتلئ القلب وتسمو العواطف والمشاعر. ومرة أخرى أعود لقول عبيد الله بن زياد فيهم: «أقمع النفاق قبل أن ينجم لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع» وأعود مرة أخرى لقول عبد الملك بن مروان عن أحد الخوارج «لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم».

وهذا الروح القوى الذي كان يسرى في أدبهم شعرا ونثرا إنما هو من وحى عقيدتهم وتمسكهم بها وثباتهم عليها وما يتصفون به من ورع وتقوى وإقدام وتضحية وإخلاص ووفاء.

ولنصغ جيدا إلى همس الخاطر ونبض القلب ونداء الروح في أبيات لقطري بن الفجاءة يقول فيها^(٢):

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى

(١) الملطى «التنبيه» والرد على أهل الأهواء والبدع» ص ٤٧.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٣٠ وما بعدها. يعتبط: يموت شابا صحيحا.

فإنك لو سألت بقاء يوم
فصبرا في مجال الموت صبورا
ولا ثوب البقاء بثوب عز
سبيل الموت غاية كل حي
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم
وما للمرء خير في حياة
على الأجل الذي لك لم تطاعى
فما نيل الخلود بمستطاع
فيطوى عن أخى الخنع اليراع
فداعيه لأهل الأرض داع
وتسلمه المنون إلى انقطاع
إذا ما عد من سقط المتاع

وقد كان لنشأة الخوارج في ظل الإسلام وتعاليمه وفي ظل بلاغة القرآن الكريم وفصاحته وإعجازه أثر بالغ في تخريج جيل قوى يدين بمذهب جديد تمثلت فيه النزعة الدينية والثورة السياسية وكان أدبهم تبعا لذلك أدبا إسلاميا جديدا قويا في منهجه وأسلوبه قويا في معانيه وأفكاره قويا بما يسرى فيه من روح الإخلاص والتضحية والفداء فكانت حياتهم الروحية خير مؤثر في اتجاهاتهم الفنية ومذاهبهم الأدبية شعرا وخطابة وقصصا ووعظا ورسائل وحوارا وجدلا وأقوالا مأثورة وحكما فكان الطابع الدينى هو الطابع العام الذى يصطبغ به هذا الأدب ويدور فى فلكه ويجول فى نطاقه ويستمد من القرآن والسنة معانيه وأفكاره، ولكى تكون الأحكام فى ضوء النصوص والآثار فهلم نستمع إلى هذه الموعظة الشعرية للطرماح، نراه فيها يعرض لمعان متواليه تضمنتها آيات كريمة من كتاب الله فيقول^(١):

كل حى مستكمل عدة العم — رومود إذا انقضى عدده
عجا ما عجبت للجامع الما ل يباهى به ويرتفده
ويضيع الذى يصيره الل — ه إليه فليس يعتده

(١) ديوان الطرماح ص ١١٢. يستتبع: يتماذى، فنده: حمقه.

يوم لا ينفع المحول ذا الشتر وة خلانسه ولا ولده
 يوم يؤتى به وخصماه وسط الج من والإنس رجله ويده
 خاشع الصوت ليس ينفعه ثم أمانيه ولا لده
 قل لباكي الأموات لا يبكي لنا س ولا يستتبع به فده
 إنما الناس مثل نابذة الزر ع متى يأت محتصده

ترى ماذا نقول إذا أردنا أن نشرح هذه الأبيات؟

إننا على الفور نقول «إن الناس لهم أجل معلوم إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وإنهم لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم يوم لا ينفع مال ولا بنون.. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون... يوم يأتي الظالمون مصفدين في أغلالهم لا تنفعهم أمانيتهم ولا مجادلاتهم الباطلة.. وهؤلاء الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في مرضاة الله إن ذلك لن يكون خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة أما الحياة الدنيا فإنها فانية وكل من عليها فان ولا ينبغي لأحد أن يركن إليها..^(١) هكذا معان متوالية تضمنتها آيات من القرآن الكريم وهكذا كان شعرهم يمتزج بروح الدين، وهكذا كانت خطاباتهم ومحاوراتهم تصطبغ بالصبغة الدينية وهكذا كان قصصهم ووعظهم يدور حول التنفير من الدنيا والترغيب في الجهاد وتحبيذ الاستشهاد ومقاومة أهل البغي والضلال الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد وهكذا كانت رسائلهم تأييدا للمبدأ ودفاعا عن العقيدة في إطار من تعاليم الدين وأحكامه وباستناد إلى حججه وآياته. ولقد بلغ الحوار في هذا المجال

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي: شوقي ضيف ص ٤٢.

مبلغا عظيما من البلاغة والبيان فى إطار جليل من قوى الروح وإشراقه الدين وومضة اليقين وأصالة الحجة وعمق الإيمان وصدق العقيدة وسلامة الغاية والهدف والالتزام بالجد الذى لا يعرف هزلا ولا سخفا والاعتصام بالجرأة التى لا تعرف تقيّة أو مداراة والثبات على المبدأ الذى لا يعرف تحولا أو انحرافا والاستقامة على النهج استقامة لا تعرف زيغا أو ضلالا.

وخير ما أختتم به هذا الفصل ذلك الأثر الوارد فى خطبة لأبى حمزة الشارى فى أهل مكة والحجاز متحدثا عن رفاقه من الشباب حديث الجهاد والتقى والتقدير والوفاء: «يا أهل الحجاز أتعبروننى بأصحابى وتزعمون أنهم شباب؟! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا. أما والله إنى لعالم بتتايحكم فيما يضركم فى معادكم ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم: شباب والله مكتهلون فى شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، وأطلاح سهر، ينظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بأية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بأية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، موصول كلا لهم بكلالهم: كلال الليل بكلال النهار قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم، وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله حتى إذا رأوا السهام قد فوقت، والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعدهم الله ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء، فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله،

وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل
بالسجود لله آه. آه. آه «ثم بكى ونزل»^(١).

إنهم شباب الخوارج وقود الثورة وشعلتها وأبطالها وفتيانها هبوا
جميعاً دفاعاً عن العقيدة والمبدأ لا يخشون فى الحق لومة لائم. رفعوا شعار
الثورة وغايتهم واحدة: إحقاق الحق الذى يروونه حقاً، وإبطال الباطل الذى
يروونه باطلاً، والأمر بالمعروف الذى يروونه معروفاً والنهي عن المنكر الذى
يروونه منكراً خرجوا تاركين وراءهم كل شئ ممن متع الحياة وباطلها
وغرورها ولا هم لهم إلا الاستشهاد فى سبيل الله. والظفر بجنة عرضها
السماوات والأرض قد أعد لها للذين باعوا أنفسهم رخيصة فى سبيل
مرضاته.

إنهم الشباب الذين تحلوا بحكمة الشيوخ وورع الأتقياء وصبر
المعتصمين بالأمل القوى فى الله والاطمئنان إلى حكمه.
إنهم بحق رهبان الليل وفرسان النهار يقضون الليالى - وما أطولها - فى
الصلاة والقيام وذكر الله وتلاوة القرآن لا يشغلهم عن الله شاغل وكفى
بالشباب للمرء شاغلاً.

ويقضون كل نهار مجاهدين مناضلين عدتهم سيوف ورماح وغداؤهم
طعنات وضربات تهون كلها فى جنب الله، ورضوان الله. فلتتمزق الأجساد

(١) البيان ج ٢ ص ١٢٢ وما بعدها. التتابع: التهافت والوقوع فى الشر. أطلاق: جمع
طلع وهو المعنى. فوقت جعلت لها الأفواق والثوق موضع الوتر من السهم.

ولتتخطفها سباع الأرض وطيور السماء فلا قيمة لهذه الأجساد ما لم تتقطع
أوصالها وتتناثر أعضاؤها فى ساحة الجهاد.

إنها صورة رائعة من صور الأدب الرفيع تهز المشاعر وتحىي
القلوب بما يسرى فيها من تيار دينى متدفق جعلها بحق حديث روح ونبض
قلب وفيض خاطر وطلاقة وجدان.

والنص الذى أوردته جزء من خطبة طويلة لأبى حمزة الشارى تمتاز
بالعمق والقوة والعاطفة الصادقة كما تمتاز بما فيها من روعة البيان ومثانة
الأداء وبلاغة الأسلوب وخصوبة المعانى وتتابع الأفكار وجزالة الألفاظ
وحسن اختيارها وبراعة التصوير وقوة الحجة، وعذوبة الموسيقى وعظمة
التأثير.

ولذلك كله كانت هذه الخطبة من روائع الأدب العربى التى وعها
الزمن وحفظها التاريخ ورددتها الأجيال.

